امين الريحاني

التطرف والاصلاح

مطابع صادر ريحاني، بيروت

BOBST LIBRARY
3 1142 01255 1654

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

DATE DUE

امين الريحاني

al-Rihani, Ameen Fares

التطرف والاصلاح

/al-Taṭaruf wa al-iṣlāh/

حقوق الطبع والترجمة محفوظة

الطبعة الثانية

اشرف على تصحيحها وطبعها البرت الريحاني شقيق المؤلف

N. Y. U. LIBRARIES

الطبعة الاولى : سنة ١٩٢٨
الطبعة الثانية : سنة ١٩٣٠
الطبعة الثالثة : سنة ١٩٥٠

Near East
PJ
7860
I45
T3
1950
C.1

عنيت بنشره وطبعه مطابع صادر ريحاني – بيروت

مقدمة

اذا كان الريحاني من الذين يسهلون على الاذهان فهم ما يريدون ايصاله اليها من دقائق البحث وروائع الحكمة فهو بعكس ذلك من الذين ينوء بنقادهم التبسط في ابحاثهم وتآليفهم ووفاؤها حقها من التحري والتمحيص. ذلك لان الريحاني واحد من تلك الفئة القليلة النادرة التي لم تنفرد بمطلب واحد من مطالب الادب ولم تتقيد بنوع خاص من فروع المعارف. فقد جمع بين البيان والشعر والفلسفة وتناولت ابحاثه مواضيع النشوء والاجتماع وله فيها مسالك ونظريات جعلت له شخصية بارزة في عالم الادب العربي ومنزلة اشهر من ان تعرّف عند الانكليز والاميركان.

وقد رغب اليّ بعض الادباء ان اجعل له من هذه المقدمة سمطاً فلبيت ولو عقلت لارعويت، لانني بعد انقطاعي عشر سنوات عن المطالعة والانشاء امسيت انا في واد واليراع في واد، ولولا صلة لي بالريحاني هي عندي بمنزلة السواد من العين لتمنعت وعصيت تاركاً لغيري من ذوي الكفاية التعليق على اقوال الريحاني بما هي اهل له من التعريف والتوشيح.

في الكتاب الذي أقدمه مطلب هو المحور الذي تدور عليه المسألة الاجتماعية منذ تأليف المجموع البشري الى عصرنا الحاضر. نشأ مع الهيئة وتطور بتطورها وتناول كل الاقطار وعم كل الشعوب ومشى معها في كل مكان وزمان متلبساً كل المظاهر التي قلدته اياها الرئاسة والسياسة وحاملاً كل الاسماء التي اخترعتها له الفلسفة والدين، وما برح الى الآن الضالة التي تنشدها الامم: اكبرها واصغرها وارقاها واحطها

ذلك المطلب هو العدل والمساواة بين الناس. هما الغاية والوسائل المؤدية الى بلوغها هي موضع النظر والبحث وبين هذين الحدين المسألة الاجتماعية كلها.

والريحاني في مقالاته «السلّم»، «التطرف»، «اصلاح الامة» و«الى طلاب المدارس» يعالج المسألة الاجتماعية ويحاول

حلها متدرجاً من النظر العام ـ الانساني ـ الى النظر الخاص الوطني ـ فاول ما انوّه به من فضل الريحاني انه مفكر ينشد الاصلاح ويسلك اليه طريق الاقناع . وطريقته في بسط المسائل سهلة المأخذ قريبة التناول لا جدَل فيها ولا خيال وانما هي سلسلة اوضاع محكمة الربط بين الاسباب والنتائج يلقيها عليك بكل بساطة كانه يسرد لك واقعة او يروي حكاية

وقد اتقن الريحاني في فلسفته هذا الاسلوب حتى بلغ منه شأواً بعيداً . وذلك ما رأيته على الخصوص في مقاله « السلّم » وقد فتح فيه باب الاشتراكية على مصراعيه وقادك الى مسألة المال والعمل والمُلاك والاجير دون ان تشعر ثم ختم دون ان يحكم . ومن كان كالريحاني انسانياً محضاً في طبعه ومبادئه لا يتعذر على قارئه ان يهتدي الى الكفة الراجحة في رأيه ، فالحكم عنده كالزهرة المحجوبة ينمّ عليها عرفها . فاذا التبس عليك ما يريده في « السلم » فهو يصرح به في « التطرف » حيث يتحول المفكر الى ثائر فيلتقي عنده شعاع الفكر ببريق النصل . فهو الناقض ليبني والباضع ليشفي . تلك هي طريقة الريحاني في الاصلاح ولها بين دعاته المعرض والمريد . من محرّم ركوب الشر لبلوغ الخير ، ومن محلل العنف والعسف لنيل العدل

والمساواة . ومما لا جدال فيه ان الاصلاح عن طريق التساهل والاقناع افضل منه عن طريق الشدة والاستبداد . ولا اخال الريحاني بالرغم عما جاش به قلمه في « التطرف » الا من انصار المبدإ والعاملين به بدليل دعوته في مقاله « اصلاح الامة » الى الثورة الفكرية قبل الثورة السياسية . ويتعذر على من كان مثل الريحاني ان يكون من المنتقضين إلا عن روية ، والثائرين على غير هدى . والاصلاح عنده لايقوم برصف الجمل وتنميق الالفاظ بل بايراد الحقائق وتبديد الاوهام . فبينما هو كالمصور يرسم لك انحطاط الشرق تراه كالرياضي يضع في تقويمه نسباً ومعادلات . ومتى قرأت خطابه في «اصلاح الامة» يهون عليك ان تدرك ان هذا الشرق لم تنبذه السماء ولا جارت عليه الطبيعة وانه هو هو مصدر بلائه والعامل على شقائه ، وان الاجنبي لم يسط عليه الا بقوة العقل ولم يغلبه الا بسيف الفكر . فالشرق وهو على ما وصفه لك الريحاني من « الجهل والكسل والادعاء » مسوق الى الخضوع والخنوع بحكم الناموس الطبيعي القاضي على الضعيف ان يكون عبد القوي اي على الجاهل ان يكون عبد العالم . والناموس الطبيعي هو الاصل في الاجتماع كما في الطبيعة

فهذا الكتاب من افضل ما كتب ويكتب في داء الشرق ودوائه ، وعلى الخصوص لبلادنا التي نفثت فيها السياسة سمومها فكادت تقضي على البقية الصالحة فيها من جراثيم الحياة . ولعلني متبع قصد الريحاني اذا قلت ان كل ما نزل بسوريا ولبنان من اسباب التقاطع والانقسام وكل ما يلغط به القوم من وحدة واستقلال انما هو ضرب من تقديم النتيجة على السبب وابتغاء الحصد قبل الزرع . فما جمعية الامم ولا انكلترا ولا فرنسا ولا اوروبا واميركا هي الحائلة دون استقلالنا ، ولكن لنا من تفرقنا وجهلنا ما يمتنع معه علينا حتى المحافظة على البقاء وللقوم الف مبسوغ للسيطرة علينا وامتلاك زمامنا ، فما نحن امة بل طوائف وما لنا وطن بل مذاهب . وما دامت هذه حالنا فرجل مثل الريحاني يمثل الفكر الحر والمبدأ القومي انفع لنا من الف نائب يمثلون المذهب والطائفة ، والبذور التي تقع من اقواله في ضمائر الناشئة هي التي تنبت الحرية والاستقلال

نجيب نسيم طراد

باريس — ٢٥ حزيران سنة ١٩٢٨

الى القارىء

بعد ان تقرأ هذا الكتيب ، مقتنعاً كنت او غير مقتنع ، اعطه جارك ، واوصه بان يعطيه بعد ان يقرأه الى جاره ، وبان يوصيه بما أوصيت به انت

واذا كنت مقتنعاً ، ايها القاري ، بما في الكتاب ، فأخذ يقلقك ما يقلق المؤلف ، ويؤلمك ما يؤلمه ، ويهمك ما يهمه ، فاشفع الوصية بكلمة من كلمات الاقناع واليقين

كن من رسل هذه الفكرة يجزك الله خيراً . كن من انصار هذه الدعوة الاصلاحية التي تنير بنور الوطنية الحقة كل ذهن تدخله ، وكل قلب تحل فيه ، وكل ضمير تستولي عليه . كن من دعاة الاصلاح الصحيح الذي يشرف الناطقين به والعاملين له ، ويضاعف فيهم قيمة الحياة

واعلم، رعاك الله، بانك غني جداً، وان كنت فقيراً، اذا انارت هذه الفكرة القلب منك والضمير، وحملتك على الجهاد في سبيلها. وانك فقير جداً، وان كنت غنياً، اذا كنت لا تهتم لما يهتم له أخوانك في الوطنية والانسانية. انك فقير جداً، وان كنت غنياً ـ غنياً بالذكاء او العلم او التقوى ـ اذا كان لا يهزك ما يهز اخوانك الوطنيين، ولا يشتعل في قلبك ولو قبس مما يشتعل في قلوبهم

اني أسألكم ايها القراء ان تكونوا من الانصار في الاقل باللسان، وفي الاقل بين الاهل والخلان. اني اسأل المقتنعين والمقتنعات منكم ان يتواصوا بهذه الرسالة ويكونوا من دعاتها. فاذا ما اقنع كل من المقتنعين والمقتنعات شخصاً واحداً، وسئل هذا الشخص ان يكون بدوره رسول الفكرة بين اهله واصدقائه في الاقل، يستمر العمل الوطني الصالح فيقنع الثالثُ الرابعَ والرابعُ الخامسَ، والخامسُ السادسَ، وقس على ذلك

عندئذ تتألف سلسلة من الاقناع واليقين لا تنتهي حتى

تعم الدعوة الامة . وعندئذ تنهض الامة النهضة الحقيقية ، وتجاهد الجهاد الاكبر فيتم الاصلاح وتتحقق الامنية

اول حزيران سنة ١٩٢٨

امين الريحاني

السلم

السلّم

كان لرجل قطعة من الارض يعمل فيها بضعة عشر عاملاً باجور ضئيلة تكاد لا تكفيهم ، وهم في شظف من العيش ، وتكفي عيالهم فقام احدهم يطلب من سيد الارض زيادة في الاجور ليتمكنوا من اصلاح حالهم ، فعده السيد مقلقاً متطرفاً . وعندما اصر على طلبه طرده واستخدم غيره مكانه

وكان ظلم السيد يشتد يوماً فيوماً بعد يقظة العمال الاولى ، فاجتمعوا وتشاوروا في امرهم ، فقال العامل الجديد : ترانا نشتغل الشغل كله والسيد يستأثر بريع الارض . فمن العدل ان يشركنا في ربع الريع في الاقل . فحبذّ اخوانه الفكرة ، وشجعوه على الجهر بها . فراح الى السيد يطلب منه ان يخص عماله بربع ريع الارض . فزجره السيد وطرده قائلاً : انك

متطرف مقلق . ثم استخدم غيره مكانه

مرت الايام والسيد يزداد قساوة ، والعمال يزدادون بؤساً فاجتمعوا ثانية وتشاوروا . ثم انتدبوا منهم ثلاثة ليرفعوا الى السيد القرار الذي قرروه ، وهو انهم يطلبون المشاركة في ريع الارض ، وانهم لا يقبلون باقل من النصف . والا فهم مصممون على الاعتصاب .

استشاط السيد غيظاً عند استماعه كلام الوفد ، وطردهم من بيته قائلا : انكم متطرفون مجنونون . واني اكون مسروراً اذا انتم خرجتم من ارضي ...

وكان الاعتصاب .

وكان ان استخدم السيد غيرهم من العمال ، فاستؤنف العمل في الارض ، وكان بين العمال الجدد رجل غائر العين عريض المنكبين ، وهو يحسن النطق والجدل ، كما يحسن الضرب بالمعول فقال ذات يوم لاخوانه : ليس اعجب من هذا النظام غير الذين يقبلون به . ترانا نعمل في الارض ثماني ساعات كل يوم ، وذاك المقيم في القصر يأكل ثمار عملنا كلها . ترانا نتعب ونشقى ليعيش هو واهله في نعيم دائم . ان الارض ، ايها الاخوان ، لمن يحرثها . فاذا شاركنا السيد في العمل حق

له ان يشاركنا في ثمرة العمل . والا فالارض لنا نتقاسم ريعها فيما بيننا على السواء .

فصفق له اخوانه هاتفين : ليسمع السيد هذا الكلام !

فمشى الرجل الى السيد في قصره واسمعه ما اسمع العمال .

ـ الارض للعاملين فيها

صُعق السيد . وبعد هنيهة رفع رأسه وهو لا يدري ما يقول . وقد خيل اليه ان الرجل ومن تقدمه من المطالبين بالاصلاح واقفون كلهم امامه .

الذي طلب زيادة في الاجور ، والذي طلب ربع ريع الارض ، والذين طلبوا نصف الريع تشخصوا امامه في هذا الذي يطلب الارض كلها .

فمن هو المتطرف يا تُرى ؟

واذا اتفق السيد وعماله على المشاركة مناصفةً في ريع الارض فالفضل في ذلك لمن يكون ؟

التطرف

التطرف

لو ساد العقل في الناس دائماً لما كان الرسل والانبياء . ولو سادت الحكمة لما كان الفلاسفة والحكماء . ولو سادت الشجاعة والحكمة والعقل معاً لما كان الظلم والظالمون .

ولو كان الناس ؛ وقد ساروا متزاحمين في الجادات الضيقة المظلمة ، يخرجون حائرين الى الطرق الفسيحة ، في ما اخضرّ ونوّر من الارض ، لما كان المصلحون

ولكن الناس ، رعاك الله ، كالانعام يسيرون قطعاناً متحاكين ، تابعين ، مسوقين . فلا بد اذن من رعاة ، ولا بد للراعي من عصا ـ ومن بندقية في بعض الاحايين . بل لا بد من عمال يحملون المعاول فيهدمون الجادات الضيقة التي لا تنفحها الشمس بشعاع من نورها ، والتي يتزاحم فيها الناس فيتكالبون ،

ويتطاحنون ، ويموتون . لا بد من هدم الجادات التي هي كالشعاب في الاودية ، والتي لا ينبت على جوانبها غير الشوك والقندول .

الا انه خير للناس ان يرجعوا هلعين ، ويتبددوا تائهين بائسين ، من ان يسيروا عماةً في شعاب الزمان ، ويموتوا عبيداً في مضايق الحياة . ان فترة من الفوضى يتبعها نظام جديد قويم عادل لخير من المظالم المستمرة

فالناس سيخرجون من تلك الجادات التي اقام الظلم والجهل على جوانبها سياجاً من الشوك والعليق . وسيخرجون شعوباً واماً ، مكرهين .

اجل ، ستخرجهم الكارثة التي تزمجر اليوم في الشمال وراء جبال القفقاس وتعصف في الشرق الاقصى

الكارثة ! وفي تربتها الحمراء قد زرعت بذور الاصلاح البشري الاكبر . هي الحقيقة كل الحقيقة . ان تربة الشر الاكبر قد زرعت بذور الخير الاكبر . وان منها تسير الروح التي تتغلغل اليوم في قلب الشرق فتغسله ، وتنعشه ، وتجدد فيه الحياة ثم تدخل دماغ الشرق فتطهره من الادران ، وتزيل منه اغشية العنكبوت .

العنكبوت ، وهل تطيقه في بيتك ؟ كيف تطيقه اذن في قلبك ، وفي عقلك ، وفي نفسك؟ بل كيف تطيقه في ما تعتقده حقائق الهية ؟ وكيف تطيقه في شرائع تحترمها وتخضع لاحكامها ؟ وكيف تطيقه في ما ينبغي ان يكون لروحك كالمعبد لله ، اي في الاداب ،وفي الشعر ، وفي الفنون الجميلة ؟

العنكبوت ، وهل هو غير الجهل ، والكسل ، والقذارة ، والجمود .

العنكبوت ينسج بيوته في كل قديم لا يمد الانسان اليه يد التنظيف والتجدد

العنكبوت ، انما هو غشاء من الوهن والعجز ينسجه الزمان على فكر الانسان . بل هو حجاب من الوهم والخرافة بدىء بنسجه في الزمن السماري وفي عهد سنشوناطون الفينيقي

العنكبوت انما هو بيت الخبث والخداع

قالت الرتيلاء تخاطب الذبابة : تعالي الى بيتي تحمدي . ادخلي تسعدي .

هو البيت الذي لا تخرج منه ذبابة تدخله .

والناس كالذباب ، وللعقائد والشرائع عنكبوتها ، وقد

اقامت فيه رتيلاء السيادة تغزل وتصيد .

تعالوا الى بيتي تحمدوا . ادخلوا تسعدوا .

والويل ثم الويل لمن لا يدخلون . الويل للعصاة والضالين ، فان هاهنا سجوناً ، وهنالك ناراً تتأجج . هي الحياة ، حياة العبيد ، ينسجها الظلم على نول الترويع . سجون ها هنا ، وجحيم ابدي هناك !

* * *

ان الجهل والخوف توأمان امهما العبودية وابوهما الظلم . وان عقلية الاسرة كلها لعقلية العبيد . وما ادراك ما عقلية العبيد . انها لتبدو في السيد وفي المسود ــ في الوزير وفي الحقير ــ في المؤمن اللابس العمامة او البرنيطة ، وفي رئيسه الرافل بالدمقس او بالارجوان : انا سيدك ، وهذا نيري على رقبتك . ثم يقول لمن هو ارفع منه : ــ انت سيدي ، وهذا نيرك على رقبتي . سبحان من جعل النير رمز المساواة .

ومرحباً بمن جاء يكسّر الانيار ، ويحرر العبيد .

* * *

ان العلم والحكمة والحرية هم الرعاة الحقيقيون . هم الذين يعرفون الموارد العذبة ، والمناجع الخصبة الطيبة ، فيدعون اليها

ولا يُكرهون . اجل ، انهم ليدعون بالحسنى ولا يكرهون احداً .

ولكن الناس عبيد ما ألفوا ، يسيرون تابعين ، مسوقين فيقتفون الآثار البادية للعين او لحاسة الشم ، وان افضت بهم الى القفار المهلكة او الى البوادي التي يكثر فيها السراب فان لم يقم فيهم من يحمل العصا ويصيح صيحة المنقذ ، فهم لا يسمعون ولا يزدجرون .

* * *

هم الناس ـ يقدسون الجهل ، ويبنون معابد للخوف ، ويشعلون امام الظلم الشموع ، ويقدمون للضلال القرابين ، ويجلسون بعد ذلك كالقضاة يدين بعضهم بعضاً ، ثم يمشون في الاسواق على الاثنين وقد حجبوا الاذناب بالجوخ والحرير

هم الناس ـ يشيدون للظلم القصور ، ويعدون للظالمين السيارات ويدفعون للملوك ما يكفي لاعاشة الوف من البائسين ، ويحرقون امام الرؤساء المدنيين والدينيين البخور ، ويأكلون كالمتمدنين بالشوكة والسكين ، ويشمخون بانوفهم اذا قيل لهم : ان البدو احرار ، وانكم لمن العبيد .

هم الناس ـ يخادعون ، وينافقون ، ويتكالبون

ويتسكسكون ويظلمون، ثم اذا سمعوا كلمة البلشفية يغضبون، ولكنهم، بعصاها مسوقون وسيُبعدون عن الاضاليل كلها.

اضاليل روحية، واضاليل مدنية، واضاليل سياسية، واضاليل اقتصادية قيدت هذه الانسانية منذ القدم، فصار اصحاب «وكانت في البدء الكلمة» يتكلمون كالآلهة. واصحاب «خلق الانسان مدنياً» ينطقون كالفلاسفة. واصحاب «الجزاء من نفس العمل» يشدون بالعدل والمساواة. وكلهم في اعمالهم كالثعالب يراوغون، فيضحون بالحقيقة والشرف والعدل في سبيل السيادة او في سبيل المال ثم يغضبون اذا قيل لهم: وستسفيكم رياح الكارثة الحمراء كما تسفي السموم الرمال!

* * *

لو كانت هذه الانسانية مرنة في معقولها ومفهومها لأثر فيها الحكمة والاعتدال تأثيراً حسناً سريعاً. اما وهي متزاحمة متراصة، بطيئة الحركة، كثيفة الذهن والاحساس، مثقلة بتقاليد وخرافات اقدم من أور الكلدانيين، فلا بد من

استخدام الالغام والمدافع في استنهاضها واستحثاثها . لا بد من الحماسة تهزها ، ومن الاهواء الاصلاحية تهيج اعصابها ، ومن خمر الحرية يُضرم في عروقها نار الهوس والمغامرة

لا بد من التطرف يغضبها ، فيستفزها ، فتنشط في الاقل الى محاربة المصلحين وتستفيد من مجرد الحركة والمقاومة

وانك لتشاهد التطرف حتى في الكائنات ، وفي نواميس الطبيعة ، فما معنى الزلازل اذن ، والبراكين ، والسيول ، والطوفان ، والامراض السارية ؟ وان في تاريخ الانسان اخوات لها نسميها الثورات والحروب

ان الثورة مطهر الامة وقد ثارت على ما فيها من الظلم والفساد . ان الثورة مطهر الانسان وقد ثار على ما في نفسه من قديم التقاليد والخرافات . ومن لا يثور على ما في نفسه ، لا ينجو من العبودية ، ولا حق له ان يشكو العبودية ،

اصلاح الامة

اصلاح الامة [1]

لا يزال الانسان المعروف في التاريخ البشري شبيهاً ، من بعض الوجوه ، باخيه السابق لعهد التاريخ . لا يزال الانسان ، المتمدن وغير المتمدن ، مسوقاً الى غرضه بعاملين اوليين هما الخوف والحاجة . فتراه يوماً يصول على اخيه ، او على خصمه ، دفاعاً عن النفس ـ دفعاً لشرٍ حقيقي او وهمي ويوماً يصول طلباً للقوت ، او طمعاً بالقوة .

حمل الانسان الوحشي النبوت في طلب العيش ، ثم في سبيل الاستئثار . مضى الى غرضه غازياً ، صائداً ، صائلاً .

---

(١) أُلقيت في حفلة جمعية الشبان المسيحية بحيفا وفي القدس ونابلس والناصرة في سنة ١٩٢٧ ثم في حفلة جمعية تهذيب الشبيبة ببيروت سنة ١٩٢٨

فعلمه الفشل الحيلة ، ولطفت من غريزته المشقات والآلام . على انه استمر يحملُ النبوت حتى بعد ان ادرك بعض السر في امره ، وشرع يفكر في عواقب عمله .

بطش في ساعات اليأس فكان قاتلاً او مقتولاً . وصال في ساعات الامل فكان غالباً ، او هارباً ، او مواربا .

ادرك الانسان لذة العيش فلجأ الى الحيلة حبا بالحياة . ولكنه عندما ادرك ان حيلته الاولى امست سلاحاً بيد جاره ، بل بيد خصمه ، لجأ الى الفكر يستنبط غيرها .

هي درجات في الدفاع عن النفس ، ولك ان تقول في اصلاحها ، لان الفوز في الدفاع معزز لصاحبه . اجل ، قد ارتقى الانسان من النبوت في سلاحه الى الحيلة ، ثم الى الفكر . ولكنه ظل مسلحاً بها كلها لغرضه الاكبر . ثم تسلحت بها الامم لاغراضها

ولكل نوع من هذه الاسلحة تاريخ في التطور والارتقاء . فمن النبوت ، الى المدية الصوانية ، الى القوس والنشاب ، الى المنجنيق ، الى الرمح والسيف ، الى المدفع ، الى المدرعة الحربية ، الى الطيارة المدمرة . هذا هو تاريخ السلاح الاول منذ خرج الانسان من الغاب يمشي على رجليه الى هذا اليوم .

ومن الحيلة البسيطة في الاستيلاء تدرج الانسان الى الحيلة الدينية فالحيلة الملكية ، فالحيلة الاستعمارية

ومن الفكرة التي فيها خيره فقط ارتقى الى الفكرة التي فيها خير اسرته ، فخير عشيرته ، فخير امته . ثم الى الفكرة التي فيها خير الانسان على الاطلاق . هوذا تاريخ الثالث من اسلحته في الحرب وفي السلم

اجل ، قد ارتقينا في اغراضنا وفي السبل اليها . قد ارتقينا سلاحاً ، وحيلة ، وفكراً . وفي هذا الارتقاء المستمر تنمو بذور الاصلاح .

اما السلاح الاول ، الذي كان نبوتاً بيد الرجل الاول فقد يرتقي الى درجة عالية هولها لا يطاق ، فيمسي مكروهاً من الامم كلها ، وبالتالي ممنوعاً فتخف في الاقل الحروب .

واما الحيلة والفكر فيستمران في تطورهما حتى تصبح الاولى سلاحاً بيد الثاني ، وقد خرج من الدائرة الوطنية الى الى الدائرة الاممية — الى الدائرة الكبرى الشامل خيرها شعوب الارض اجمعين .

اني ممن يعتقدون ويتيقنون اننا سائرون في هذا السبيل . اجل ، اننا سائرون الى الامام . فمن خير استمتع به كل قوي

من رجال الغاب الى خير استمتع به الكهان ، الى خير كان محصوراً بالامراء والملوك ، الى خير احتكرته الامة او الشركة التي كانت اقوى من سواها ، الى الخير الاكبر الذي سيشمل الامم جمعاء.

ولكننا لا نصل الى هذه المحجة الا بالاصلاح الذي فيه الصلاح والرقي ، اي الاصلاح الذي يقرن النشؤ الطبيعي بالتطور الاجتماعي وبالارتقاء الخلقي

* * *

ان في الشرق اليوم اثراً للتطور الاجتماعي ظاهراً اكثر من سواه . اما النشؤ الطبيعي الذي فيه القوة المادية ، والارتقاء الخلقي الذي فيه القوة الادبية ، فلا يزالان مقيدين بكثير من التقاليد والعقائد التي لا تلتئم وروح الزمان

واذا ما بحثنا اسباب التقهقر في الامم الشرقية اجمالاً نجد اهمها في ثلاثة : هي الجهل ، والكسل ، والادعاء .

الجهل اولاً وهو الظلمة بعينها . الجهل هو الظلم وهو العبودية . هو التعصب والخرافة . هو الطاعة العمياء والاثرة الاثيمة . هو الخوف ، والجبن ، والمذلة .

الكسل ثانياً وهو الجمود بعينه. الكسل هو القناعة والفقر. هو المرض والشقاء. هو الخداع، خداع النفس، والغبن، والخمول. اما الادعاء وهو ثالث هذه الآفات فهو في تلك المظاهر الاجتماعية التي تكاد تكون محض شرقية، اي مظاهر الفخفخة والابهة والمجد الباطل. الادعاء، انما هو في الالقاب التي نتعشقها، وفي المقامات التي نقدسها، وفي الوجاهات التي نبذل من اجلها المال والشرف، وفي العظمة الجوفاء التي يرتدي كل رئيس رداءها وان كان بالياً مرقعاً

اني اسمعك تقول: ولكن في الشرق اليوم نهضة عامة سياسية واجتماعية. لست منكراً ذلك فقد بدأت تنقشع غيوم الجهل والكسل وشرع المصلحون المجددون يحفرون تحت صروح الادعاء لهدمها.

ولكننا لا نزال في بداءة العمل، ولا نظام فيه ولا تنظيم. بل الان في خلال العمل، تتغلغل الفوضى العامة. فالشرق القديم، وقد تفلت من قيوده، ليسير يوماً مع التيار ويوماً يغالبه. والشرق الجديد، وقد بدأ يدب ويدرج، يلهو بلعبته الجديدة — بتقرير المصير، والاستقلال، والبرلمان، والدستور.

قد يكسّر الشرق هذه اللعب الجديدة، ويعود الى تلك

القديمة ولكنه لا يستطيع ان ينبذ هبة الزمان وقد جاءته من يدَي العلم والتمدن ، وهي منذ نصف قرن تغالب فيه الجهل والكسل ، والادعاء.

على ان الشرق لا يزال في حال التحول . وانه ليصعب على ادق المراقبين نظراً ان يرى ما في المستقبل من عوامل الرقي ، او يتكهن في ما تكنه الايام من اشكال الاحكام

اما ان الشرق قد نهض من سباته ، وفتح منه البصر والبصيرة ، فما لا شك فيه . واما ان الاوروبيين في الشرق اليوم راضون بذلك فما لا اجزم به .

ان بين الفريقين اليوم خصومة شديدة سوف تسفر — وهذا هو عندي بمنزلة اليقين — عن امرين ، اولهما اعتراف الاوروبيين بحقوق الشرقيين السياسية والاقتصادية في بلادهم ، والثاني هو احترام الشرقيين للاوروبيين كتجار ، واخصائيين ، ورسل للعلم والمدنية .

اما الحالة الحاضرة في الشرق ، من الصين الى فلسطين ، فهي التي وصفت بالتحول . ان في الشرق اليوم من النزعات السياسية الجديدة والنعرات الدينية القديمة ، والعصبيات ، والقوميات ، والتحزبات ما تضطرم اضطراماً عمياً بل تشتعل كلها

في بركان واحد هو بركان الوطنية

وفي الشرق المدارس ومعاهد العلم تُعد بالمئات . وكذلك الصحف والمجلات . وفيه المطابع تطبع الكتب الحديثة، الادبية والتاريخية والعلمية . وفيه انـدية الادب والالعاب الرياضية، والسيارات ودُور الصور المتحركة، والقاعات للرقص والمحاضرات . وفيه الشركات المالية للقيام بالمشاريع الوطنية . وفيه ايدٍ تغزل وتنسج، وايد تصنع القنابـل والبارود .

ان النار والنور ليتباريان في الشرق اليوم . ولكن في تلك النار كثيراً من الحطب الاخضر ، وفي ذاك النور كثيراً من الدخان .

الحطب الاخضر — وما ادراك ما هو ! هو النقص في خُبر الزعماء وفي اخلاصهم . هو الهوى الطائش والتعصب الاعمى في الجموع المتألبـة . هو تزلف الرؤساء الدينيين الى اولي الامر الاعلى وتضحيتهم بمصالح الامة في سبيل مصالحهم الخـاصة . الحطب الاخضر الذي يحجب دخانه النور انما هو الجهـل والخوف، والحاجة والرياء، والجبن والنفاق، والاثرة والادعاء . هي حال الشرق اليوم . نارٌ تتأجج ونور يكاد يخنقه الدخان .

هي حال الشرق الاقصى والادنى ، من الصين الى فلسطين .

و كيف تُصلح هذه الحال ؟ كيف تتخلص من الحطب الاخضر فيصفو النور ، وتبدو سبل الهداية قويمة جلية للناس ؟ وبكلمة اخرى كيف تُصلح الامة ؟

قد اشرت في ما تقدم الى تدرج الانسان في سلاحه ، دفاعاً وهجوماً ، من النبوت ، الى الحيلة ، الى الفكر . وهو لا يزال في سبيل الاصلاح يلجأ الى النبوت ، الى القوة . على ان هناك طريقة اخرى غير الثورة مثلاً ، هي طريقة التطور الطبيعي ، بل طريقة الفكر وكل ما يتناوله من اساليب التعليم والتربية .

أيُّ الطريقتين افضل ؟ قد تعلمون اني في ما اكتب واقول حامل على القديم البالي ، والقديم الفاسد ، من العقائد والتقاليد . اني اطلب انقلاباً عاماً في الحياة الشرقية ، ولست في ما اطلب سياسياً . انما طريقتي ادبية ، تهذيبية ، روحية .

أجل ، اني ادعو الناس الى ثورة فكرية تذهب بما في الاخلاق ، والعادات ، والتقاليد ، والعقائد من فساد ، وسخافة ، وضلال . الثورة الادبية قبل الثورة السياسية . والثورة الروحية

قبل الثورة الاجتماعية . « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » . فالمرء الذي يثور اولاً على نفسه فيصلحها ، انما هو المصلح الحقيقي . المرء الذي يثور على ما ورث من الاجداد ، مما كان فاسداً اصلاً او مما افسده الزمان فيصلحه او ينبذه ، هو هو الذي يحق له ان يثور اذا اقتضى الامر على الحكومة .

وان هذا الرجل ، اذا خدم الحكومة ، فليخدم الامة اولاً وآخراً . ان هذا الرجل وامثاله يشعرون بما عليهم من واجب الخدمة للوطن .

ولكن هذا الشعور الوطني لا ينتشر في الامة ويعم الناس الا بواسطة التهذيب الراقي والتربية ، والوطنية الحقة . هي ذي اسباب الاصلاح الاولى . على اننا نرى ، اذا ما جئنا نحدد الخدمة الوطنية والتهذيب الراقي ، ان النظر فيهما يختلف باختلاف المبادىء والنزعات السياسية والدينية .

سأنتقل اذن من التعميم الى التخصيص توصلاً الى الحقيقة الجلية التي يسهل فهمها والعمل بها ، وساقتصر في البحث على هذه الامة ، امتنا العربية ، بل على اجزائها الشمالية الساحلية الواقعة تحت الانتداب

قد تعددت المدارس وتنوعت في هذه البلاد السورية

اللبنانية الفلسطينية . ولكل نوع منها خطة في التعليم ومبدأ في التهذيب لا يتفقان اجمالاً مع منهج سواه . انما المدارس مثل المعابد في البلاد ، لها صبغة دينية او مذهبية . فلا يجوز والحال هذه ان نفترض ان التهذيب الراقي هو واحد فيها كلها ، او انها كلها تعلم مبدأ واحداً في ما هو واجبُ الخدمة للوطن .

سأعود اذن الى الاوليات ، الى الالفباء في الوطنية ، والى ما نحن فيه اليوم من حقائقها الواقعية .

ما هو الشعور بواجب الخدمة الوطنية ؟ اني قبل كل شيء اقول ان خدمة الوطن لا تجيء صافية الا من ابناء الوطن . ولكن شعور هؤلاء بواجب الخدمة يتنوع اصلاً ، ويتفاوت شدة ، واخلاصاً ، وتمويهاً . فمن الشعور السوري ، الشعور اللبناني ، الى الشعور الفرنسي ـ ومن الشعور العربي ، الى الشعور الصهيوني ، الى الشعور الانكليزي ـ بل من الشعور الفاتر العام ، الى الشعور الحار الخاص ، الى الشعور المتقطع المصطنع ـ من الشعور بالمنفعة ، الى الشعور بالعجز ؛ الى الشعور باليأس ـ هذه هي انواع من الشعور الوطني عندنا . بل هي درجات فيما يصح ان نسميه مرض الامة العصبي

اما الخدمة الوطنية فقد تكون سياسية ، او ادبية ، او

اقتصاديـة . فمن ذا الذي يشعر اليوم بوجوب الخدمة السياسية التي تستقيم فيها مصلحة الوطن قبل كل شيء ــ مصلحة هـذه البلاد اولاً وآخراً ؟ ان هناك من يشعرون ولا ريب هذا الشعور ، ولكننا لا نجدهم بين من يشتغلون اليوم بالسياسة .

ومن ذا الذي يشعر بوجوب الخدمة الادبية التي لا تشوبها شائبة من قديم النعرات ، وذميم التعصبات ؟ من ذا الذي يشعر بوجوب الترفع في الاداب عن السياسة المحلية او الخـاصة ، وعن العصبية الدينية او الاقليمية ؟ ان هناك افراداً يشعرون ولا شك هذا الشعور . ولكن نفوذهم اليوم لا يتجاوز دائرة من العمل صغيرة .

اما الخدمة الاقتصادية ، واهم ما فيها الزراعة والصناعة ، فكلنا نشعر بواجبها ، وكلنا ننشده ، وقلّ فينا من لا يـترفع عن العمل به . قلّ فينا غير العاجز والمتحذلق . اجل ، ما زال القلم ــ في نظر الشبيبة المهذبة ــ اشرف واسهل استخداماً من المعول والنول ، فكلنا ادباء وشعراء وسياسيون . كلنا وطنيون مصلحون ــ وطنيون على المنابر ، مصلحون عـلى صفحات الجرائد مدبرون امور دويلاتنا بالفكر الثاقب ــ وقضيب الخيزران !

ليس بين الامم الكبيرة والصغيرة ، الشرقية والغربية ، امة قوالة مثل هذه الامة السورية اللبنانية العربية . والكلام منفذ من منافذ الخطر . لذلك لا يخشى علينا من الانفجار العام مهما اشتد الضغط ومهما تعددت النكبات . ان مثلنا مثل ذاك الاعرابي الذي قيل له ان الدولة الفلانية تصول على العرب ، فغضب وقال : والله لاهجونها بقصيدة

اننا ، ايها القوم لمن افصح الشعوب لساناً ، واغناهم بياناً . فلا عجب اذا كثرت في بلادنا المهن « الحرة » اي المهن الهينة . لا عجب اذا كثر فيها الادباء ، والمحامون ، ورجال الدين . وكلهم يسارعون الى خدمة الامة . كلهم يدعون حبها . كلهم يتبارون ، يتفانون في سبيل اسعادها ! ولكنهم ، غفر الله ذنوبهم ، اخطأوا السبيل . فلو حملوا المعاول او البنادق من اجل الامة لكانوا اخلص واشرف في عين الله والناس . والامة ! الامة المسكينة تسلي نفسها بالاشعار ، وتضمد جروحها بالمقالات السياسية . الامة المسكينة تعيش شاكية شاكرة في ظل الخنوع ، وفي ظلال اطلال الثورة .

اما الذين يشتغلون بالسياسة ويظنون انفسهم وطنيين يقومون بواجب الخدمة للبلاد فاننا ، اذا رفعنا الحجاب عن

المقاصد والاسباب ، نرى تلك الخدمة محصورة بواحدة او اثنتين من مصالح ثلاث اي المصلجة الشخصية ، والمصلحة الطائفية او الحزبية ، والمصلحة الانتدابية ومن السياسيين من يترفعون عن الشخصيات ـ وهناك نفر من هؤلاء الافاضل ـ فهم يظلون مستمسكين باهداب الطائفية ، عاملين لخير الطائفة ، ولك ان تقول لخير العشيرة ، قبل خير الوطن . انما الطوائف اوطاننا .

اجل ، اننا اغنياء حتى في الوطن . عندنا منه اوطان ! وكل واحد منها يختص بفريق من الناس دون سواه (صكه مسجل في المقام الديني) وموقع في باريس ، او في لندن . او في جنيف .

وهناك اصحاب من وقع الصك ومن صدق على التوقيع ، اصحاب « محرر المقاولات » واصحاب اصحابه . وهناك خصوم صاحب الصك ، وخصوم خصومه . اناس لا يرون في واجب الخدمة الوطنية غير المطاعن ، وترييف الحقائق ، وإثارة النعرات القديمة . واناس ـ واكثرهم من الشبيبة المتفرنجة ـ لا يرون واجب الخدمة في غير التكلم بلغة اجنبية وتعفير الوجه ـ وجه النفس ـ « امام محرر المقاولات » واصحابه ، واصحاب اصحابه .

هذا هو الظاهر والباطن من حقيقة الخدمة الوطنية ومن الشعور بواجب الخدمة . انها لحالة محزنة مؤلمة . ولا يغيرها في الحال احد من الناس . ولا جماعة من الناس . لا يغيرها غير جيل جديد يتلقى العلم في مدارس وطنية عامة ويتربى تربية جديدة . لا يغير الحال ، فيسلم شعور الامة ويستقيم فيعم العلم بالواجب ، وتصفو الخدمة الوطنية ، وتنجو البلاد من براثن الفوضى والفساد ، غير التهذيب الراقي

وما هو التهذيب الراقي ؟ لو سألنا احدى المدارس هذا السؤال لاجابت قائلة ان التهذيب الراقي هو تحصيل العلوم وتحسين الاخلاق . اما التهذيب الراقي فهو ما صُبغ في مصبغتنا الخاصة . وفي البلاد مدارس عديدة كما قلت ولكل مدرسة مصبغة [1]

---

(١) التعليم انواع ، وكل ما كان حظنا منه في الماضي انما جاءنا هبة من رجال الدين ومن مدارس الاجانب . لا انكر اننا استفدنا من هذا التعليم ولكننا استفدنا كافراد فقط . ولا يخفى عليكم ان الهبة اية كانت لا تخلو من اثر المصلحة والجميل ، بل من اثر العبودية . فالتعليم الطائفي ثبتنا في نزعاتنا الدينية والطائفية . والتعليم الاجنبي ابعدنا عن الوطنية الحقة فجعلنا متفرنجين . قد استفاد الفرد ولا شك فكانت النتيجة التفريق والشقاق

ان هناك ولاشك بعض التفاوت في المادة وفي الطريقة — في الصباغ وفي الادوات . ولكن الحقيقة الاولى ، الحقيقة التي نشاهدها ، ونلمسها ، ونتألم منها ، هي اننا على تعدد المدارس سائرون على ما يظهر الى الوراء . فما السبب في ذلك ؟ هل المدارس لا تفيد ؟ هل العلوم التي يتلقنها الطلبة لا تفيد ؟ هل هو التهذيب الطائفي او الملي او الاجنبي ؟ هل هو الادب الخيالي ، ام هو الادب العتيق البالي ؟ ما السبب ، على تعدد المدارس ، في تفكك الجامعة وتشتت الكلمة وفساد الاخلاق ، وانحطاط القوى المعنوية في الامة ؟

من المسائل التي لا تحتاج الى برهان ان التعليم اساس العمران . التعليم سياج الوطن . التعليم ركن من اركان الاستقلال . هي اولية أمست مبتذلة . ولكننا ولا وطن جامع لنا لا نحتاج السياج . اذن ، لا حاجة الى التعليم ؟ !

ان العلم لمن الزم ما يلزمنا . ولكنه وحده لا يفيد . العلم اذا جرد عن التربية الحقة يزيد المرء قوة ولا يزيده ادباً . يرقي فيه القوى العاقلة ولا يكون الاخلاق ويربيها . يمكن المرء من السعي الموفق في سبيل الدنيا ، ويضعف فيه القوى الادبية

والروحية التي يرتكز عليها حب الوطن .[1]

ان في العالم اليوم طريقتين اوروبيتين في التعليم الراقي ، اي الطريقة الانجلوسكسونية والطريقة اللاتينية . وان في البلاد مدارس تتمثل فيها كلتا الطريقتين . ولكن ارباب الفكر وذوي الثقة في علمي التعليم والتربية يفضلون الطريقة الانجلوسكسونية على الطريقة اللاتينية . فقد قام حتى في فرنسا من يحبذون الاولى اجمالاً ويفضلونها على الثانية . ومن هؤلاء الفيلسوف لوبون ، والسياسي ليون بورجوا وصاحب كتاب « سر تقدم الانجليز »

لست في هذا المقام بشارح الجزئيات في الطريقتين لأبين الفوارق بينهما . ولكنني ذاكر مثلاً او مثلين . ان المدارس اللاتينية تعول كثيراً في الدروس والامتحانات على الكتب والذاكرة ، والمعاهد الانجلوسكسونية تعول على العقل والعمل . قال غوستاف لوبون : « الشاب اللاتيني يتعلم لغة من اللغات بدرس كتب النحو والاستعانة بالمعجم ويظل عاجزاً ان يتكلم

---

(١) البرهان تراه اليوم في اولئك الذين درسوا في مدارس اجنبية ، فهم يفضلون الحكم الاجنبي المباشر على الحكم الوطني

تلك اللغة . والشاب الانكليزي يتعلم لغة من اللغات دون ان ينظر في المعجم او في كتاب من كتب النحو وانما يقرأ ويتكلم وبهذه الطريقة استطاع الانكليز ان يكوّنوا لانفسهم طبقة راقية جداً من العلماء العاملين » فمن كلام لوبون يتضح ان في المنهج الانجلوسكسوني يعتمد الطالب اولاً على التجربة والعمل ، وفي المنهج اللاتيني يعتمد اولاً على الكتب والنظريات

وهاكم ملاحظة اخرى من كتاب « روح التربية » تأليف لوبون . قال الفيلسوف الافرنسي : « لا يكاد الشاب الانكليزي او الاميركي يخرج من المدرسة حتى يجد طريقه الى العمل بينما الشاب الافرنسي ، بعد ان يبلغ الشهادة الثانوية او « الليسانس » هو عاجز عن كل شيء . فاما ان ترزقه الحكومة او يضيع »

هوذا السبب عندنا ايضاً في اخفاق التعليم . هوذا السبب في عجز شبابنا طلاب الوظائف . فاما ان ترزقهم الحكومة ، واما ان يضيعوا او يهجروا البلاد .

اما معاهدنا الوطنية غير الاسلامية ، فهي في منهجها اما لاتينية واما انجلوسكسونية . وليس في الشرق ، او في ما يهمنا اولاً من الشرق ، اي البلاد العربية ، منهج للتعليم خاص ، منهج صالح عصري فنفضله على المناهج الاوروبية . لذلك ترانا

في الاختيار مكرهين. ولا اظنكم تنكرون بعد هذا الايضاح ان لا بد من التفضيل. فاذا سُئلت أي الطريقتين افضل اجيب: اني من رأي العلماء الافرنسيين لوبون وبورجوا وشاربنتيه في تفضيل الطريقة الانجلوسكسونية من وجوه عديدة على الطريقة اللاتينية.

واني فوق ذلك اقدم التربية على التعليم، لان الغاية القصوى من التربية هي الاخلاق، وحاجتنا الى الاخلاق هي اشد منها الى العلم

* * *

وما هي التربية ـ التربية الحقة؟ انها، من وجهة محض علمية، تُحصر في سلامتين، سلامة الجسد وسلامة العقل. ولكننا نرى ان الحياة ناقصة اذا ما نظرنا اليها من الوجهة العلمية وحدها. فيجب ان ننظر اليها كذلك من النواحي الادبية والروحية والاجتماعية. عندئذٍ تتجاوز التربية صحة الجسد والعقل الى ما فيه الخلق الكريم، والذوق السليم، والقلب الفهيم.

ان التربية الحقة قائمة على عدة اصول اهمها في نظري:

١ ـ الاعتماد على النفس

٢ ـ كرامة النفس

٣ ـ حسن الظن بالناس

٤ ـ حرية الارادة

٥ ـ الجرأة الادبية

٦ ـ نبذ العقائد والتقاليد القديمة البالية

٧ ـ الصراحة في الصدق والقول

٨ ـ الاستقامة في الرأي وفي العمل

٩ ـ حب العدل والانصاف

١٠ ـ اللاطائفية في السياسة وفي الاداب

هذه هي عشرة اصول في تكوين الاخلاق العالية ، وسأنظر موجزاً في بعضها .

ان في الاعتماد على النفس اعزازاً لشأن المرء وشؤون الامة . وان فيه متعة خاصة غير المتعة التي تجيء مع النجاح . ان فيه متعة السعي والخبر والاكتشاف . ومن الاعتماد على النفس الاستقلال الفكري . على كل امرىء ان يفكر لنفسه ، ان يمرن العقل على التفكير ، ان يعود النفس المراقبة والتحليل . وليس عليه ان يقبل رأي غيره ، او طريقة جاره ، قبل ان يختبر صحتها ويتحقق من صوابها . وبكلمة اخرى ان الاستقلال الفكري يخرج المرء من اخاديد التقاليد والعقائد الى ما انفرج من سبل

المعرفة ، وما اتسع من جادات الحياة .

اما حرية الارادة فاننا في الشرق لفي اشد الحاجة اليها . لا اريد بحرية الارادة معناها الوضعي الفلسفي . ولا اريد بحرية الارادة ان ينزع كل امريء الى اهوائه ، ويسترسل في التفرد والاثرة المفضيين الى تفكك الجامعة والى الفوضى . انما اريد بحرية الارادة ان يدرك المرء الحسن والاحسن وان يريد للناس كما يريد لنفسه الاحسن دائماً .[1] وان يدرك الواجب عليه ويريد القيام به دون ان يُنبهَ له او يُكره عليه . وان يدرك روح السيادة فيريد القويمة السليمة على شدة احكامها ولا يريد الفاسدة الاثيمة على تساهلها .

واعلموا ، رعاكم الله ، ان المرء يفوز بكل ما يسعى اليه ـ ينال كل ما يطلبه اذا كان ذلك في حيز المعقول ـ اذا اجتمعت في سعيه كل قواه وانحصر في طلبه كل قلبه ، وكل عقله ، وكل نفسه . وينبغي له ان يكون في الحالين ثابتاً ، ومضحياً فوق ذلك بكل ما لا يساعد في تحقيق غرضه الاكبر . ان تمرين الارادة

(١) لو طلبت من انكليزياً مثلاً ان يريد لمصر او للهند ما يريده لوطنه لما استطاع ذلك لان ارادته مقيدة بوطنيته او لان حب الذات يفسد عليه حرية الارادة .

في الصغائر والكبائر من الامور يزيدها قوة ومرونة ، ويمكن صاحبها من السعي المستمر والثبات ، انما الارادة روح الثبات وان في الثبات الفوز المبين

وهناك دعامتان للاخلاق السامية متزعزعتان عند الشرقيين هما الجرأة الادبية وحب العدل والانصاف . ليست الجرأة الادبية ان تنتقد الحكومة والرؤساء في ما تكتب او تقول وانت خالٍ بمكتبك او ببيتك . بل الجرأة الادبية هي في المواجهة والمصارحة . هي في قولك : لا ، عندما لا تستطيع ان تطيع ، وفي قولك : نعم ، عندما يوجب الضمير عليك الطاعة . اجل ، ان الجرأة الادبية هي في وقوفك امام حاكمك او رئيسك صامد الرأس عزيزاً كريماً . فتحترمه وتطيعه في مواقف الحق وتخالفه ولا تذعن لاوامره في مواقف الباطل .

اما حب العدل والانصاف لغيرنا كما لانفسنا فهو من اشرف السجايا البشرية . ان من يشعر بذنبه ويقبل الجزاء راضياً صابراً لأشرف ممن يشعر بحقه ويطالب به . وان من يطلب العدل لنفسه فقط يكشف عن نقص في خلقه وادبه . يجب علينا اذن ان نعلم الاولاد في المعاهد وفي البيوت ان يقبلوا العدل وان كان عليهم ، وان ينصف بعضهم بعضاً حتى في اللعب والمباراة .

وهناك الاخيرة من دعائم الاخلاق العالية وهي جديرة بان تكون الاولى ، هي الزم ما يلزم في تكوين اخلاقنا . ان من العقبات التي تعترض الشرقي عامة والعربي خاصة في ارتقائه ، عقبة جهنمية يكرم عندها ابناء الطاعة والجهل — او الطاعة والمصلحة — ويُقضى فيها على الحرية والاستقلال . عقبة اقامها رؤساء الاديان وزدعوا جوانبها شوكاً وقلاماً . عقبة يلجأ الى اكواخها كل من يخشى النور ، نور العلم والحرية والرقي المدني . وكل من يرفض الاخاء والوحدة القومية والمساواة ، خوف ان يغبن فيها . عقبة تبعد الناس بعضهم عن بعض ، وتثير الناس بعضهم على بعض فتتفكك عناصر الامة ، وتتقوض اركان الوطن . هي حقاً عقبة كأداء ولا حياة لنا راقية ، لا حياة وطنية جامعة الا في تذليلها او في هجرها

وهل من حاجة الى اسمائها . لا ، ليس الدين ما اعني انما الدين سهل منبسط فسيح فيه طرق للشعوب كلها . اما العقبة فهي محوطة بالاسلاك الشائكة ، العقبة هي الطائفة ، هي الملة ، هي العشيرة . بل هي الفكرة البشرية الصغيرة التي تخرج بنفسها من دائرة الانسانية الكبرى ، فقلما ترى الفضل

في غير ابنائها ، وقلما تريد الخير لغير ابنائها [١]

---

(١) « انكم وان استغوتكم السياسة واستهوتكم الاحزاب لمن وطن واحد رأس حسناته ذكاء ابنائه ، ورأس آفاته تفرد ابنائه . اريد بالتفرد النزوع الى التفريق ، او بالحري الى العصبية ، قومية اكانت ام طائفية . جبلية ، ام اقليمية . وهذه النزعات ناشئة عن حب الذات ، وضعف الثقة بانفسنا

« فالمرء الشديد الثقة بنفسه لا يخشى ان يضحي بشيء من خصوصياته في سبيل الوطن او المصلحة العامة ، علماً منه ان في تعزيز الوطن والمشاريع العمومية تعزيز شؤونه الخصوصية تجارية كانت او ادبية

« وهذه الحقيقة في الاجتماع لم ندركها نحن السوريين تمام الادراك . وان ادركناها فلا نستطيع ان نعمل بها ما زالت النعرات الطائفية حية فينا قوية ، ظاهرة كانت او خفية .

« وهذه في نظري علة العلل . فلا الوصاية ولا الاحتلال ، ولا الضم ولا الانفصال ، ولا الحرية والاستقلال تجدينا كبير نفع اليوم اذا كنا لا ننهض على النزعات الطائفية والنعرات الدينية فنقتلها او نقزع في الاقل غدد السم منها

« ونزع غدد السم هو في طرد الطائفية من ميدان السياسة . نزع غدد السم هو في الطلاق التام بين الوطنية والدين . الطلاق فعلاً لا قولاً . اجل ، يجب ان نجرد انفسنا كوطنيين من كل تعصب ديني وكل تحيز طائفي ، فنعلن على رؤوس الاشهاد اننا كسوريين من طائفة واحدة نزفها فوق كل الطوائف ألا وهي الطائفة الجديدة ، طائفة الادب والتهذيب ، طائفة

اخواني ابناء وطني ، ان اول ما يلزمنا في هـذه البلاد السورية ، الفلسطينية ، اللبنانية ، الحورانية ، العلوية ، الجهنمية ، في هذه البلاد التي تعددت فيها المعابد والمعاهـد الدينية ، والمدارس والمساوي. المذهبية ، انما هو هذا الشعور الوطني الخالص من شوائب المذهبيات والطائفيات كلهـا — الشعور الصافي السليم الخالص للوطن

قلت هذا منذ خمس وعشرين سنة — قلتـه مراراً — وما ازال اردده . فالحاجة الى ترديده اليوم هي اشد منها في الماضي . منذ خمس وعشرين سنة بدأت انادي واستمررت انادي برفع القومية على العصبية الدينية والمذهبية . منذ خمس وعشرين سنة وانا اكتب واخطب لهـذه الغاية القصوى التي يستقيم

الاخلاق القومية ، طائفة الوطنية السورية على الاطلاق

ان ديني وطني ، وبطريركي مبدأي ، وكنيستي ادبي ، وطائفتي امتي . والاديب الصميم الحر الصادق من قال هذا القول وسلك هذا المسلك . والصحافي الحر الصادق الوطنية من بشر بالطائفة الجديدة — طائفـة الوطن والجنس — ورفعها على كل الطوائف الدينية والاحزاب السياسية في البلاد »

من خطبة للمؤلف ألقيت في حفلة من الحفلات السورية بنيويورك بعيد هدنة الحرب العظمى .

عندها الشعور الوطني الشامل اجزاء الوطن كلها . وما تزال الامة من هذا القبيل حيث كانت منذ خمس وعشرين سنة . وما ازال مع ذلك ـ بل لذلك ـ ثابتاً في الدعوة ، مثابراً على الجهاد في سبيلها .

قلت وما ازال اقول :

علينا ان نرفع في شؤون الحياة المدنية الوطن على الدين

وعلينا ان ننسى خارج الكنيس والكنيسة والخلوة والجامع اننا اسرائيليون او مسيحيون او دروز او مسلمون .

بل علينا ان نفكك الطوائف كلها لنستطيع ان نؤلف منها طائفة الوطن الكبرى

اجل ، علينا ان نسعى في تأليف وطنية عالية شاملة ، ركنها الاول الوحدة القومية الجغرافية ، وان نعزز هذه الوحدة بالاعمال لا بالاقوال

وعلينا ان نغرس هذه الفكرة في البيت ، وفي المدرسة ، وان نؤسس لها الجمعيات من النساء والرجال لتبثها في الامة .

ايتها الام اللبنانية ، ايتها الام السورية ، ايتها الام الفلسطينية ، اننا نناديك باسم الوطن الذي سيعيش فيه ابناؤك واحفادك ، فهل تريدين ان يعيشوا احراراً اعزاء او عبيداً

اذلاء ؟ ان في طاقتك ان تساعدي في بناء الوطن الجديد ، بل ان في طاقتك ان تشيدي وحدك اركانه الكبرى . اننا نناديك ايتها الام ونستعين بك . انت نصف الامة ، بل انت في حال التكوّن الوطني الامة كلها . علمي ابناءك محبة الوطن الحقة قولي لهم ان الاجنبي لا يحترمهم اذا كانوا لا يحترمون انفسهم . قولي لهم ان الاجنبي لا يحتقر لغة اجداده ، بل يحتقر في قلبه من يحتقرون لغة الاجداد . قولي لهم ان اللسان العربي لسانهم وان اللغة العربية لمن اشرف لغات الارض . فليتعلموها ، وليتقنوها ، وليعززوها . قولي لهم ان الاجنبي لا يغار على مصالح بلادهم وعلى لغتهم اذا كانوا هم لا يغارون عليها . علميهم ان يخلصوا للوطن قبل ان يخلصوا للاجنبي ، بل قبل ان يخلصوا لانفسهم . علميهم التساهل الديني ، والتضامن الاجتماعي والسياسي . علميهم ان يكونوا عرب اولاً ولبنانيين ، او سوريين او فلسطينيين بعد ذلك . علميهم ان يكونوا عرباً اولاً ، ومسلمين ، او مسيحيين ، او دروزاً ، او يهوداً بعد ذلك .

ايها المعلم ، علم تلاميذك الحرية فكراً وعملاً ، والاستقامة فكراً وعملاً ، والتساهل فكراً وعملاً . وعلمهم ، وان كنت

اجنبياً ، ان من واجباتهم الاولى ان يعتمدوا على انفسهم فيستغنوا تدريجاً عن الاجانب . نعم ، ايها الافاضل الاجانب ان فضلكم الاكبر هو ان تعلمونا لنستغني عن فضلكم .

ايها الاديب ، أرح هذه الامة من الاحلام والاوهام . ارحها وارح نفسك من البكاء والنحيب . وأعطها بدل شعر الخيال والدموع شيئاً من لب العلوم الحديثة . اعطها شيئاً من الحقائق الوضعية ، والمبادىء العملية ، في الحياة . كن طبيباً قاسياً ، لا حبيباً مؤاسياً . كن من المشيدين لبناء التضامن القومي لا من الهادمين . واذكر ، رعاك الله ، مسلماً كنت او مسيحياً او درزياً او اسرائيلياً ، ان التعصب الديني لغايات سياسية ، [1] او التعصب السياسي لاغراض دينية [2] هو

---

(١) كتعصب الاقليمية المسيحية لحكومة لبنانية «مسيحية» مستقلة

(٢) كتعصب فريق من المسلمين المعممين لحكومة عربية «اسلامية» وروح التمدن والارتقاء هو ضد الاثنين . ان ما نطلبه ونجاهد في سبيله انما هو الحكم المدني القومي — نريد حكومة عربية سورية لبنانية مدنية لا مسيحية ولا اسلامية

اخبث انواع التعصب واشرها [1]

ايها الرؤساء ، ارشدوا الامة الى ما فيه خيرها ها هنا ـ في هذا العالم ـ وربنا ، وهي منذ قرون مطية لكم ، حاملة صليبكم ، لا يحرمها خير الآخرة . ساعدوا في تكوين العاطفة الوطنية الجامعة . ساعدوا في تشييد الوحدة القومية . كونوا ، اكرمكم الله ، من البنائين

ايها السادة والسيدات ، اني على يقين ، ان اصلاح هذه

---

(١) « اني على يقين ان التعصب عار على شبيبة تدعي العلم والتساهل

« اني على يقين ان التساهل وان لم تصبك منافعه هو خير من التعصب وان جر لك مغنما

« اني على يقين ان السوريين واللبنانيين لفي حاجة دائمة بعضهم الى بعض ، وان جادة الشرف والصدق والشجاعة نسلطها خير من الذل والرياء في سيادة نستشمرها .

«اني على يقين ان المسلم والمسيحي والدرزي والعلوي اخوان في السراء والضراء شاؤوا ام لم يشاؤوا . اخوان في الوطنية احبوا ام كرهوا . فاذا افسدوها في اعمالهم ، افسدوا على انفسهم مصادر الخير والسعادة كلها »

من خطبة للمؤلف القيت في طرابلس في ايار سنة ١٩٢٥

الامة ـ اصلاحها الحقيقي الثابت ـ انما هو بالمدارس الوطنية اللامذهبية العامة وبالتربية الوطنية العالية الجامعة . عندئذ يقوم الوطن على اركانه كلها وفي مقدمتها الوحدة القومية التي لا تتم بغير التفكك الطائفي

الى طلبة المدارس

الى طلبة المدارس[1]

ايها السادة والسيدات

ان املي بشعب اليوم وبزعمائه لمن الامال الضائعة . فاسمحوا لي اذن ، بعد التحية والاكرام ، بان اوجه كلامي الى الطلبة في هذه المدرسة وفي كل المدارس الوطنية الحرة الراقية

احييكم ايها الطلبة واحيي فيكم روح المستقبل وقد سطعت فيه الانوار التي تستضيئون بزيتها بل بكهربائها من هذه المدرسة الوطنية العالية — العالية بكل معنى الكلمة . احيي فيكم المستقبل وقد سطعت فيه انوار الوطن الحر المستقل العزيز الجانب بغير الاجانب ، الوطن الذي لا يعرف التقسيم والتجزئة ،

(١) القيت في الحفلة السنوية (١٩٢٧) لمدرسة الجامعة الوطنية بعاليه

ولا يعرف الاثرة والتعصب ، ولا يعرف الظلم ولا الخنوع

انتم وامثالكم في المدارس الوطنية الراقية من المغبوطين لانكم سترون تلك الانوار وتستنيرون بضيائها ، فتستمتعون بثمار الوطنية الحقة . بل انتم المشعلون لتلك الانوار وانتم زيتها. انتم مصدر الزعامة الكبرى التي ستظهر فيكم ومنكم لخير الوطن الاكبر

انكم في هذه المدرسة اخوان ، وان اختلفت لهجاتكم العربية وتعددت مذاهبكم الدينية . ولكن لا فضل لكم في هذا الاخاء وهو ركن من اركان التعليم الحر الراقي . انما فضلكم فيما ستحملونه ان شاء الله الى الوطن — كل الى بلاده — من هذا الروح المقدس روح الاخاء الذي سيضم تحت لوائه المسلم والمسيحي والدرزي والاسرائيلي كما سيجمع بين اللبناني والسوري والعراقي والفلسطيني

انكم ايها الطلبة رسل هذا الروح المقدس ، روح الاخاء ، وعليكم قبل ان تخرجوا من المدرسة ان تقسموا اليمين امام رئيسها واساتذتها انكم ستحفظون عهدها فتعملون بمبدإ الاخاء ، في كل بلد تقيمون فيه من البلاد العربية

يميناً ، وعملاً ، وفوزاً بعد ذلك مبيناً . اليست لغتنا واحدة ؟

اليست آدابنا العربية واحدة ؟ اليست عاداتنا وتقاليدنا واحدة؟ اليست مواردنا الروحية ، وان تعددت الطرق اليها ، واحدة ؟

كلنا ندين بدين التوحيد. كلنا نوحد الله ولا نرجع في النهاية الى سواه . نحن ابناء الاديان التوحيدية وما موسى وعيسى ومحمد غير رسل الاله الواحد ، رسل التوحيد . فاذا كان الهنا واحداً ولساننا واحداً ، وبلادنا في سهولها وجبالها وصحاريها واحدة ومصائبنا السياسية كلها واحدة ، افلا ينبغي ان يكون الوطن كذلك واحداً فرداً لا تقسيم فيه ولا تجزئة ؟

اني اسأل هذا السؤال وانا عالم ان الجواب الذي فيه العمل والانقاذ متوقف عليكم انتم رجال المستقبل

اما رجال اليوم فهم ابناء احوالهم. لا اقول اكثر من ذلك. واحوال اليوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ان كان في لبنان او في سورية ، او في فلسطين او في العراق ، هي كما تعلمون — هي كما يشتهي العذّل — لا كما يشتهي الوطنيون الصادقون ، الوطنيون المنزهون عن الاغراض الخاصة ، الناظرون بعين العقل وعين القلب الى ذاك المستقبل المجيد الذي تموت فيه العصبيات ، الا عصبية واحدة هي العصبية العربية ، وتضمحل فيه الطوائف الا طائفة واحدة هي الطائفة الوطنية .

اقول وحق ما اقول ، ان ذاك المستقبل آت ، وكل آت قريب وانتم شهودي على ذلك . انتم حجتي . انتم المستقبل ، فالسلام عليكم .

واني اعطيكم هذه الكلمة لتكون شعار كل منكم مهما كانت مهنته في الحياة . هي كلمة قلتها مرة ورددتها في صيغ شتى وفي مواقف متعددة

اني لبناني متطوع في خدمة الامة العربية و كلنا منها .
واني عربي متطوع في خدمة الانسانية و كلنا منها .

فاذا قال لبناني هذا القول ، افلا يقوله السوري والفلسطيني والعراقي ؟

قل : اني فلسطيني متطوع في خدمة الامة العربية و كلنا منها ـ واعمل بما تقول .

قل : اني سوري متطوع في خدمة الامة العربية و كلنا منها ـ واعمل بما تقول

اما انك مسيحي او مسلم او درزي او اسرائيلي فذلك لا يهمني ويجب ان لا يهمك خارج معبدك . بل اقول فوق ذلك: اذا كنت لا تنسى ايها المسلم خارج الجامع انك مسلم ، واذا كنت لا تنسى ايها الدرزي خارج الخلوة انك درزي ، واذا

كنت لا تنسى ايها الاسرائيلي خارج الكنيس انك اسرائيلي ، واذا كنت لا تنسى ايها المسيحي خارج الكنيسة انك مسيحي ـ اذا كنتم لا تنسون مذاهبكم لتتحدوا اتحاداً حقيقياً وتتضامنوا في سبيل الوطن ، فانكم كلكم بفضل تلك المذاهب ، فريسة اطماع الاجانب . بل كلكم سائرون الى العبودية السياسية الاقتصادية التي هي في الامم شر العبوديات

ولكن المستقبل لنا ان شاء الله . اجل ، ما دام في البلاد مدرسة عربية واحدة مدرسة واحدة وطنية حرة راقية فاملنا في المستقبل حي لا يموت . واملي انا الخاص ان تجعلوا ايها الطلبة الاعزاء الكلمة التي ذكرت شعاركم ، وان تقولوا فوق ذلك باللامذهبية خارج المعابد وتعملوا بها

انا لا مذهبي ، لا طائفي . ولكني في ديني اصدق من كثير من اصحاب القلانس ، واحنف ـ اذا صحت الصيغة ـ من كثير من اصحاب العمائم الكبيرة . استغفر الله واستغفركم من كلمة فخر تمقتها نفسي . ولكن الذين يكفروننا يحرجون

عندما افكر في المذاهب والطوائف الدينية ـ بليتنا الكبرى ـ وفي اولئك المتعصبين جهلا او نفاقاً ، الذين يكفرون الناس ويتعيشون بجهل الناس . اذكر بيتين من الشعر

الانكليزي لصديقي الاميركي الشاعر إدون مركهام (Edwin Markham):

« He drew a circle and shut me out,
A renegade, a heretic, a thing to flout;
But love and I had the wit to win; —
We drew a circle that took him in.»

اي ان المتعصب رسم دائرة صغيرة وجعلني انا الكافر خارجها . ولكني والحب عوني غلبناه ، فرسمنا دائرة كبيرة وجعلناه ضمنها

ايها السادة والسيدات ، ايها الاخوان والادباء . ايها الاساتذة والرؤساء ! لنتعاون كلنا في رسم الدائرة الكبرى — دائرة الاخاء — التي ستضم ابناء الوطن كلهم اجمعين ، وترفع بهم الى مستوى الوطنية الحقة ، المرتكزة على التعليم الحر الراقي ، وعلى التربية القومية الشاملة العالية

مبدئي (١)

لي منية غير الشهرة والمجد ، غير الثروة والغنى ، غير السرور والسعادة . منيتي الاولى ان اكون بسيطاً في اعمالي . صادقاً في اقوالي مستقيماً في ارائي طبيعياً في تصرفي ، وبكلمة ان اكون نظيف العقل والقلب والجسم ، بعيداً عن التصنع والصلف والزخرفة ، بعيداً عن الخوف والجبانة والخجل ، بعيداً عن الرياء والتدليس والكذب . اريد ان اتقبّل كل ما يقابلني من الصعوبات في طريق الحياة بثبات وصبر .

اوّد ان اعيش دون ان ابغض ، واحب دون ان اغار ، وارتفع دون ان اترفع ، واتقدم دون ان أؤخر من هم دوني او احسد من هم فوقي . هذه هي سنتي ، وللغير ان يتخذوا لهم سنة توافقهم . للغير ان يتخذوا نفس الخطة اذا شاؤوا او استطاعوا . ليس من شأني ان اتدخل في شؤونهم او ان اعظهم متهدداً او ارشدهم منذراً

عليّ ان اعيش صادقاً مسالماً مستقيماً ، وعليهم ان يعيشوا

---

(١) هو دستور الريحاني الذي وضعه سنة ١٩٠٥

كما يطيب لهم . ولكن الواجبات التي اطلبها لنفسي هي واجبة لكل فرد على الاطلاق في كل مكان . وكما انني اعترف للغير بهذه الحقوق والواجبات احب ان يعترف لي الغير بها ايضاً

لا اريد ان انصح متى كانت نصيحتي غير مطلوبة ، ولا ان اساعد متى كانت خدمتي غير لازمة . وان كنت قادراً على اسعاف احد افعل ذلك بطريقة تدفع طالب الاسعاف الى العمل فيسعف نفسه . وان كان في ما يلهم الناس الى الخير ويرفعهم درجة واحدة في سلم الترقي العقلي الروحي ، اريد ان اظهره بالمثل والاشارة والاستنتاج وليس بالتبشير والتهديد والتأمر .

احب ان تشعشع حياتي ولا احبها ان تفرقع .

ابن الربحاني

امين الريحاني

نختم هذا الكتاب بكلمة الاستاذ اغناطيوس كراتشقوفسكي المستشرق الروسي الشهير . وقد ترجم الى الروسية مقالات من الريحانيات ونشرها وصدر كتابه الروسي بهذه المقدمة النفيسة وهي درس تحليلي لمؤلفات الاستاذ الريحاني يدرك منها ابناء اللغة العربية المقام الذي ناله فيلسوفنا العربي في عيون رجال الغرب وتقديرهم علمه وادبه .

مقدمة

كتاب الريحانيات المترجم الى الروسية[١]

بقلم

الاستاذ كراتشقوفسكي

•

امين الريحاني

في صباح يوم جميل من ايام ربيع سورية الباكر[٢] من سنة ١٩١٠ كنت جالساً في مكتب صغير لصديقي جورج عطيه محرر جريدة المراقب البيروتية . كنت احب تلك

(١) معربة عن الروسية

(٢) كتبت هذه المقدمة سنة ١٩١٠ في لننغراد (يومئذ بترو غراد) حيث الربيع يتأخر عادة الى شهر ايار ، وكان عمر الريحاني حينئذ ٣٢ سنة

الزاوية الهادئة في سوق مار جرجس القليل الحركة ، وكنت اغتنم كل فرصة تسنح فايمم ذاك المكتب ، ماراً بالازقة التي اعرفها ، ومتيقناً ان صديقي سيرحب بي خير ترحيب .

وكنا ونحن نرشف القهوة التي تقدم للزائرين حسب العادة الشرقية لدى وصولهم ، نتجاذب اطراف الحديث ، وكلانا مسترسل فيه ، الى ان يضطر صديقي ان يقفل مكتبه ليذهب الى قرية في ضواحي بيروت كان مقيماً فيها

ان تلك المكاتب الصغيرة — ادارات الجرائد — لخير ما يختاره الغريب الراغب في مراقبة الحياة العربية على انواعها ، ذلك لان الناس من مختلف الطبقات في الهيئة الاجتماعية يرون من واجباتهم ان يؤموا ادارة الجريدة ولو للسلام

ولكنهم يؤمونها لشتى الاغراض . فانك تجتمع هناك بالفلاح اللبناني مثلاً الذي جاء يشكو شيخ قريته او بالراهب الحانق على رئيسه والذي يذكرنا في مشاغباته بما رواه غوغول[1] عن النزاع الدائم بين ايفان ايفانوفتش وايفان

---

(١) Gogol كاتب مجوني نبغ في روسية في اوائل القرن الماضي ، له كلمة مأثورة حفرت على قبره وهي : « خلال دموعي ترى ابتسامي »

فيكيفوروفتش [٢] وهناك المهاجر الذي يعود من امير كة فهو يهرول الى ادارة الجريدة ليطلع دفعة واحدة على اخبار بلاده ناهيك بجملة الاقلام والشعراء الذين يترددون الى هذه المكاتب اكثر من سواهم .

وما مر ذاك الصباح دون زائر يزور مكتب الجريدة . فقد دخل علينا رجل كنت اجهله من قبل . هو احد اصدقاء المحرر الكثيرين ولكنه غريب الشكل في ظاهره ، يلبس بدل الطربوش قبعة من الجوخ الناعم تدل على انه اقام مدة طويلة في بلاد الغرب . وفي سيماء وجهه الاحمر الشاحب ما يدل على التواضع ، وما وراء ذاك التواضع من شخصية هادئة بعيدة القرار .

ان مثل هذه الشخصية تندر اجمالاً في ابناء العرب وهم في طباعهم اميل الى التبسط في الحديث ، والاكثار في الافصاح ، ويشفعون فوق ذلك كلامهم بالحركات والاشارات

(٢) قصة هزلية من قصص غوغول طافحة بالمجادلات العقيمة بين شخصين متشابهين حقيقة ومعنى مختلفين روحاً وادراكاً . وفيها صورة حقيقية لما كان يحدث في روسية الوسطى بين معاصري غوغول من النزاع في سطحيات الامور والابتعاد عن جوهرها .

وقد كان يبرق في عيني الزائر السوداويتين الغائرتين شيء من الالم لا يخفى لاول نظرة على احد ، هو ألم كان يقاسيه في تلك الايام من مرض عصبي في يده اليمنى كاد يشلها .

عندما دخل هذا الزائر ، ورأى في المكتب رجلاً غريباً بادرنا الكلام باللغة الانكليزية اكراماً للغريب . وقد بدا لي في نبرات صوته ان ما يحسن من تلك اللغة يفوق العلوم المدرسية . بيد اني اسرعت فحولت الحديث الى اللغة العربية ـ هي طريقة كنت اتخذها لأتخلص من مجاملات التعارف ـ فخضنا تواً الموضوع الذي كان يشغل وقتئذ جميع الناس . وما الموضوع غير الدستور العثماني وما تبعه من الانقلابات ومن الحركات الرجعية .

في تلك الايام ، ايام تبلبلت الاحوال وخابت الامال ، تأكد العرب ان الامة العربية لن تنال ما كانت تتوق اليه ، وتطالب به حزب تركيا الفتاة ، وقد كنت اصغي الى كل ما يقال في الموضوع في الاجتماعات العمومية والخصوصية واتتبع كذلك ما تكتبه الجرائد المحلية

اما حديث الزائر الجديد فقد كان منبهاً ومؤثراً اكثر من شكله الظاهر . اذ ان اقواله دلت على تفكير عميق . ولم تكن

افكاره لتنحصر في السطحيات شأن خطباء العرب غالباً .

وكان حديثه بعيداً كذلك عن التطرف والتحزب ، مجرداً عن الحدة ، خلافاً لما كان مستحوذاً يومئذ على الناس . فلم ينتقد الحكومة وحدها بل اشرك معها الامة وخصوصاً الطبقة الراقية فيها . وقد قال في اثناء الحديث : « ما افسدته القرون الكثيرة لا تصلحه في سنوات قليلة الاصلاحات التي تجيء من العرش او مما حوله — من علِ »

ثم قال وقد بدت في وجهه امارة الحزن الشديد : « ومما يزيدنا اسفاً ان الهيئة الاجتماعية التي ترى لا تدرك الغث من السمين ولا تقدر من يسير امامها منزهاً عن الاغراض الشخصية وغير متحزب لحزب من الاحزاب » .

ثم ابتسم وقال : اما انا فالكلمة التي اتخذتها شعاري هي : قل كلمتك وامش .

ذكرتني هذه الكلمة بشيء قرأته قريب العهد . وبما اني عند التعرف لم اسمع جيداً اسم الزائر سألت صديقي عنه عندما ذهب فاجاب مختصراً : هذا امين : كذلك كان يعرف الى اصدقائه مكتفياً بالاسم الاول .

فقلت : واي امين ؟ فاجاب فوراً : امين الريحاني

الريحاني . اعرف جيداً هذا الاسم فقد كنت اقرأه في الجرائد العربية في السنتين الاخيرتين . وكنت اعرفه خصوصاً من المناظرات الشديدة التي كانت تدور حوله وتحتدم نيرانها في صحافة بيروت في تلك الايام

بل كنت اترقب بشغف لا مزيد عليه سير تلك المناظرة وفيها الفريقان المتعاديان يتطاحنان . وقد تملك البغض والغضب من كليهما فيظهران الواحد على الاخر في اشد مظاهر العداء ، وكلاهما واحد في الاعجاب والانكار لا حدَّ لما يصف ولا قيد لما يقول . فبينما كنت اقرأ والابتسامة على شفتي — مقالة يعظم فيها الريحاني ويدعى بفيلسوف الفريكة ، كانت تجيئني جرائد الفريق الاخر ، وفي مقدمتها جريدة الاباء اليسوعيين ، وفيها كلها اعمدة من القذف بالريحاني فقد كانوا يلقبونه باقبح الالقاب . وقد دعته احدى تلك الجرائد « بالكافر المنتن الذي نبذه الغرب » وكثيراً ما كانوا ينعتونه بالماسوني وهو نعت في الشرق ينعتون به احرار الفكر من الناس ، كما كان ينعت الاحرار عندنا في روسية في اوائل القرن التاسع عشر باشياع فولتير

بعد ان تعرفت الى الريحاني احببت ان اتفحص جيداً تلك المناظرة الصحفية فباشرت منذ ذاك الحين درس مؤلفاته درساً

مدققاً . ومن حسن الحظ انه كان قد طبع في صيف سنة ١٩١٠ مجلدان كبيران يحويان اكثر ما كتبه في تلك الايام

ولكن اجتماعنا الاول كان لسوء الحظ الاجتماع الاخير . فقد كنت مضطراً ان اغادر بيروت في شهر اذار سنة ١٩١٠ لارجع الى روسية في مطلع الصيف . كما اني علمت من الجرائد ان الريحاني غادر بيروت ايضاً في ذلك الوقت ووجهته طبرية المعروفة بمياهها المعدنية ، قصد الاستشفاء بها من مرضه العصبي . ثم سافر في تلك السنة الى انكلترا ومنها الى اميركة .

٢

جاء في ختام احدى مقالات الريحاني قوله : « ان في لبنان روحي ، وفي باريس قلبي ، وفي نيويورك الآن جسدي » وحقاً انه ابن عالمين : اميركة وسورية . وهما يختلفان كل الاختلاف الواحد عن الآخر . الا انهما على صلة متينة ، بفضل المهاجرة العربية ، منذ سنة ١٨٧٠

رحل الريحاني من جبال لبنان في صباه فهاجر الى اميركة الشمالية التي اضحت وطناً ثانياً له . ولم يمارس التجارة هناك كما يفعل اكثر المهاجرين اللبنانيين بل انصرف الى الاداب والكتابة والخطابة في اللغة الانكليزية فمكنه ذلك من درس الحياة

الاميريكية عن كثب درساً دقيقاً

ومما يستحق الذكر ان مؤلفاته الاولى كتبت وطبعت باللغة الانكليزية اما لغته العربية فلم يظهر فيها خطيباً لاول مرة قبل سنة ١٩٠١ وذلك تلبيـة لدعوة احدى الجمعيات السورية في نيويورك . وكان موضوع خطبته « التساهل الديني » ان خطة الريحاني الاصلاحية تبدو لنا في هـذه الخطبة باجلى بيان ، فقد كان يهتم للاداب والكمالات الشخصيـة اهتمامه للمسائل الاجتماعية . اما السياسة ، التي يحوم عليها اكثر كتاب العرب ، ويرغب القراء عمومـاً فيها ، فلم يدنُ الريحاني منها ، ولا مال قلبه اليها .

ان امعانه في درس الحياة أكشف له الستار عما في التمدن الاوربي من الفساد . وقد بدت جلياً سيئاته في ما كان يشاهده من الكبرياء والاثرة في ابناء ذاك التمدن ومن معاملتهم المنكرة للاجانب . ان الريحاني في مقالته : « على جسر بروكلن » ليخنع لذاك التمدن . اما في مقالاته الاخرى فهو يحمـل ، وقد خلع الخنوع ، على ما في الحياة في بلاد « الحرية » من المتناقضات .

على ان روحه نفرت مما لامست ، وما اسعفته اعصابه على الاستمرار في تلك الغمرات . فاسرع « هاربـاً » الى الطبيعة

العزيزة لديه ، فاقام في جوارها عدة سنين متنسكاً كل التنسك . ومنذ ذاك الحين اخذ المسلك الجديد اي العود الى الطبيعة يبدو في مؤلفاته . وقد كتب في هذه المدة اجمل وابدع مقالاته ، ومنها في « العزلة » و« وادي الفريكة» وبعض الاشعار النثرية .

وقد كان في امكان الريحاني ، وهو رجل الفكر اكثر مما هو رجل العمل ، ان يعيش مدة طويلة تلك العيشة النسكية لو لم تدفعه الحقيقة الاجتماعية مرة ثانية الى مضمار الحياة . فان حوادث سنة ١٩٠٨ حملته على العمل ، فظهر امام الجمهور خطيباً وكاتباً ، يخطب في الاجتماعات العمومية في بيروت وغيرها من المدن ، ويكتب المقالات في الجرائد العربية المختلفة . على ان هذا الجهاد كان في نتيجته مثل جهاده في امير كة . ذلك لان السياسة كانت غريبة لديه وما استطاع ان يتعرف اليها ليكون من رجالها . وهو القائل بالعود الى الطبيعة والسالك المسلك الذي يدعو الناس اليه . بل كان مبدأه في الحياة الاجتماعية ينحصر في كلمة من كلماته وهي : « في اصلاح الفرد اصلاح الامة ، وفي تهذيب الشعب اصلاح الرؤساء والحكام »

لم تكن هذه الاقوال النظرية لتكفي مطالب الزمان ولا ساعدت في معالجة الحوادث . اضف الى ذلك تلك المناظرات

الشديدة بين مريدي الريحاني واعدائه ، وما كان عليه هؤلاء من الحيرة واولئك من المكابرة ، فتدرك السر في تلاشي آماله الجديدة وفي ما تبعها من اليأس . ولا عجب . فلم يكن في امكانه ان يحوّل الحياة في وطنه الى مجاري الحق . ففي مقالته « حول المساواة » اصوات رنانة تؤنب اولئك الزعماء المخدوعين الذين لا يرون الخلاص الا بالاصلاحات الخارجية على مثال الغرب . وفي مقالته « رجل الشعب » تتخلل هذه الاصوات دعوة غريبة الى الحكم المطلق . مما يدلك على ما كان يساوره من القنوط الشديد في تلك الايام . ومما هو جدير بالذكر ان هذه المقالة التي هي الاخيرة في المجموعة المذكورة ، هي كذلك الاخيرة من نوعها في آثاره الادبية .

لم يقف الريحاني في عمله بعد سنة ١٩١٠ بل استمر يكتب المقالات واكثرها قصيرة في مواضيع شتى . ثم عاد في سنة ١٩١٢ الى اللغة الانكليزية فألف « كتاب خالد » المطبوع في نيويورك . وهذا الكتاب هو شبه قصة ــ نصفه قصة ونصفه قصيدة . اما الموضوع فهو هو الذي طالما ازعجه ، ومحوره الثورة الروحية والمثل الاعلى في الحياة الشخصية الشرقية والغربية

وفي ايام الحرب العظمى كان الريحاني في اميركه وقد سعى

سعياً مبروراً ، قولا وعملاً ، في سبيل المنكوبين ابناء وطنه الذين كانوا يموتون جوعاً في لبنان ، من جراء الاحوال التي اوجدتها الحكومة التركية .

ليس لكاتب كالريحاني في آداب الشعوب الاوروبية شهرة تتجاوز الحدود العادية . واما في الاداب العربية العصرية ، التي يرجع عهدها الى نحو مئة سنة مضت ، فان له الشخصية البارزة وان اسمه ليقرن في التاريخ بابتكاره اسلوباً معلوماً خاصاً به . ومن مزاياه انه متوسع في ادبه توسعاً يخرج به الى حدود المسائل العالمية . وبعبارة اخرى انه حاول ان يربط المتناقضين المتضادين ، الشرق والغرب . على انه اخفق في هذا السعي . وانه لسعي ، على ما اظن ، غير موفق ، اياً كان صاحبه الريحاني او سواه من الادباء . ذلك هو السبب في القنوط الذي يعرفه حق المعرفة ابناء القرن العشرين .

لا اظن ان بين كتاب العرب المعاصرين كاتباً آخر يستطيع القراء الاوروبيون ان يفهموه فهمهم للريحاني . ولكن في العالم العربي نغماً من القراء ، اولئك المتمسكين بالقديم ، لايفهمون الريحاني ذا الشخصية البارزة والروح المثناة التي يفقهها الافرنج ذلك لانهم يعتقدون ان السداد كل السداد في آرائهم ، وانهم ،

على ميـل فيهم للتحكم والارشاد ، فوق غيرهم ولا يستطيع الناقدون العرب انيدر كوا ماادر كه الريحاني وهو ان الغرب في الاداب العربية عنصر حي حيوي ، وسيكون له في رقيها القسط الاوفر او المعادل في الاقل للعنصر الوطني .

وللريحاني ، فوق ذلك ، فضل لا ينكر في انه ابطل عادة الاقتداء بالغرب ، ذلك الاقتداء المطلق الظاهر في كل دور من ادوار الادب العربي الجديد ، ابطله الريحاني في انتقاده الغرب انتقاداً صحيحاً عادلاً . وهذه المزية في ادبه هي بنت المهاجرة ، والمهاجرة هي من العوامل القوية في ازدهار الاداب العربية في الربع الاخير من القرن الماضي

ومما يجب ذكره خصوصاً هو ان لبعض العوامل الظاهرة تأثيراً كبيراً في تبلور الاداب العربيـة في القرن التاسع عشر . قد يصعب علينا انتقول في اية سنة تولدت هذه الحركة الفكرية ولكن العاملين الاكبرين هما البعثة العلمية الافرنسية الى مصر في آخر القرن الثامن عشر والارساليات الدينية المختلفة الى سورية في اوائل القرن التاسع عشر فان فيهما مصدر الحركة الفكرية في مصر وسورية ، تلك الحركة التي رفعت القطرين الشقيقين الى المقام الاول في الاداب العربيـة العصرية فكانا ولا يزالان

حتى يومنا ! الينبوع الاغزر للعلوم والاداب

اما القطر المصري فقد اتبع اولاً التقاليد الافرنسية في الادب ثم عدل عنها الى التقاليد الانكليزية ، وذلك منذ العقد التاسع من القرن الماضي . واما القطر السوري فقد انتشر فيه اولاً النفوذ الايطالي القصير الاجل ثم حل محله النفوذ الافرنسي والنفوذ الانكليزي فظلا سائدين معاً حتى سنة ١٩١٤ . اننا لذلك نشاهد في هذين القطرين ، في المدرسة وفي الحياة ، من النظريات الخاصة مالا يتفق والمذاهب المأخوذة ، وما لا يدرك جوهرها الاصلي . فاذا كان هناك داروينيّ ، مثلاً كشبلي شميل فانه يظل داروينياً طيلة حياته ومؤمناً بالعقيدة الداروينية اكثر من صاحبها . كذلك قل في سليم قبعين مترجم مؤلفات طولستوي فانه كان يحلم بان يمكث على الدوام في المزرعة الطولستوية . واما قاسم امين « محرر المرأة » فانه يرى ان استعباد المرأة هو السبب الاوحد في انحطاط الشرق . فجاهد من اجلها ذلك الجهاد المستمر المطلق الذي لايعرف غير ناحية من الحقيقة ولايقبل المهادنة فيها

اما ازدهار الاداب العربية الصرية بعد العقد الخامس من القرن الماضي فهو يرتبط بالمهاجرة من سورية ارتباطاً شديداً . وقد كانت هذه المهاجرة اولاً الى القطر المصري القريب ،

القطر الشقيق ، حيث لم تكن المراقبة ، ونورت حرية الفكر هناك ، وريشت الصحافة فنمت ، فبدت نضرة قوية ، وهي لا تزال كذلك حتى هذه الايام

اما المهاجرة الى اوروبا فقد كانت على الغالب فردية خصوصية بخلاف المهاجرة الى مصر . ومع ذلك فقد نبغ بفضلها افراد يشار اليهم بالبنان . منهم رزق الله حسون الذي زار روسيا في العقد الثامن من القرن الماضي ، وترجم مؤلفات كريلوف [1] الى اللغة العربية . وقد توفي هذا النابغة العربي في لندن بعد ان قضى حياة مضطربة لانتقاده الحكومة التركية انتقاداً مراً . وكانت وفاته من سم دسه له احد المقربين من السلطان العثماني . وقد قال قبيل وفاته هذين البيتين :

قد قضى الله ان اموت غريباً ... في بلاد دعيت قسراً اليها
وبصدري مخبآت معان ... أنزلت آية الحجاب عليها

اما المهاجرة الى اميركة التي ازدادت في العقد التاسع من القرن الماضي ، فمن الصعب ان نحكم الان على مقدار تأثيرها في

---

(١) Kriloff كاتب من كتاب الروس الشهيرين له قصص وامثال شبيهة بقصص لافونتين .

الآداب العربية الجديدة . على انه لايقل اهمية عن تأثير المهاجرة الى مصر . في اميركة تولدت الصيغ الجديدة ، ونشأ الادب المستحدث الذي جهله العرب الاقدمون ، ادب التهكم والمجون هو ادب لذيذ المعنى ، خفيف الروح ، كتب بلغة عامة لم تستعمل ، في ما قبل ، الا نادراً ، اللهم اذا استثنينا ماظهر منه ، وهو قليل ، في القطر المصري . فخائيل واسعد رستم — الاب والابن — وشكري الخوري مبتكرون في هذه الطريقة ولهم من المقالات والقطع مالذ وطاب معنى وشكلاً

واني اخص بالذكر شكري الخوري الذي هاجر الى البرازيل . فهو يمثل لنا في قالب الحوار حياة الفلاح اللبناني في بلاد العجائب وشقاءه هناك . وان تصويره لهذا المسكين ، وما في تلك الصورة من الترهات التي يولدها خبره للحياة الاميركية المختلفة كل الاختلاف عن الحياة في لبنان ، انها لصورة مضحكة بل انها لصورة تدمي القلب الماً وتستذرف الدموع . وهناك كاتب آخر قريب في الروح من الريحاني هو جبران خليل جبران الذي يعطينا الامثلة البينة الباهرة في تأثير الحياة الاميركية على نظريات الكاتب العربي البسيطة ، فتبدل فيها ، وتغير اشكالها ، وتقلبها ظهراً لبطن . وقد حمل هذا الكاتب

المتفنن على الحياة الاميركية والاوروبية حملات شعواء

بناء على ذلك نقول ان كل من له علم بالحياة العربية، فيفهمها من نواحيها الخاصة والعامة، يرتأي ولاريب رأينا في ان اميركة هي التي اوجدت رجلاً كثير التفكير والتأمل كالريحاني ذلك الرجل المطلق من قيود التقاليد الشرقية والغربية.

قد اطلق الريحاني نفسه من تلك القيود فنبذ سلطان اولي السيادة سواء اكانوا من قومه أم من غير قومه، وشرع ينتقد ويغربل ما في المدنيتين الشرقية والغربية من السيئات والحسنات

اجل قد ادرك الريحاني سر الحياة الاميركية. على أنه من الخطأ ان نعده من الغربيين. فهو عربي صميم، بل هو سوري وابن جبل لبنان. وان لوطنه هذا المقام الاول في جميع افكاره واميالة واطواره. اما البلاد العربية الاخرى فاذا جاء ذكرها في مقالاته فذلك نادر وبعبارة اخرى هي غالباً غامضة كأنه يتكلم عن الهند او الصين [1]

(١) هذا في تلك الايام. ولكن الريحاني بعد رحلته الشهيرة في البلاد العربية (١٩٢٢ — ١٩٢٣) كتب كتابه «ملوك العرب» الذي يعد مفخرة من مفاخر الادب العالمي ثم كتب «تاريخ نجد الحديث» وكتاب «ابن سعود شعبه وبلاده» باللغة الانكليزية، وكان المستشرقون في مقدمة المعجبين بها كلها.

الى لبنان تتجه افكاره واحلامه حيثما كان ، وهو القائل :
ان في لبنان قلبي . فلا عجب اذا كان يستطيع ان يصور بيئة لبنان القريب الى قلبه بتلك السهولة العجيبة ـ وفي بعض الاحيان بجرة قلم واحدة . خذ الشقاق الديني مثلاً الذي لا حد له هناك فهو يتمثل امامنا في مقالات الريحاني العديدة كما هو صورة طبق الاصل . وكذلك اقواله في الموظفين الخاملين الكسالى « الذين يدخنون » ساعة اشغالهم وقلما يفتكرون ـ وفي عبيد التقاليد والعادات وخزعبلات « الرسميات » التي يتمسكون بها حتى في اشد ايام الضيق . ان في هذا النوع من ادبه ألم نفسي يمازجه حب اشد منه هو في الحقيقة الباعث له . ولا يخفى الاثنان ـ الالم والحب ، حتى في ساعة الاجتهاد والتصنع كما يظهر في صفحة كتبها عن بيروت . وان في هذه الكلمة تتجلى مقدرته في الانشاء العربي

احب الريحاني الطبيعة حباً جماً متناهياً بل حباً يدنو من العبادة . ولست اعرف كاتباً عربياً آخر نشأت فيه هذه العاطفة للطبيعة ونمت نموها في الريحاني . حقاً انه لامر غريب كيف ان ابناء هذه الامة القريبة من الطبيعة لا يعرفون هذا الحب ولا نمت في قلوبهم هذه العاطفة . ان في شعرهم القديم وصفاً دقيقاً

فوتوغرافياً لما كانوا يشاهدون ولكنهم لم يظفروا بشيء من السر في ادراك كنه الطبيعة وفي العاطفة لها

ومن الغريب ايضاً ان نوعاً من انواع الادب المعروفة الشائعة، اي النوع البسيكولوجي [1] في الوصف والمقابلة يكاد يكون غير معروف في الشعر العربي ولا يستعمل الا نادراً. مع انه من المزايا الشعرية عند اكثر الشعوب القديمة. ولكنه لم يعرف حتى في الشعر الاوروبي الا في العهد الحديث. اما الكتاب العرب فقلما تجد في كتبهم صورة كاملة متقنة لمشهد طبيعي. هو نقص في آدابهم ولا يزال حتى اليوم. ولا نجد حتى في مؤلفات جرجي زيدان، القصصي العصري الكبير صورة للطبيعة متممة. ان هناك خطوطاً واهية ضئيلة تكاد لا تكفي لادراك ما تشير اليه

---

(١) Parelélisme Psychologique مثال ذلك ما في « نشيد الانشاد » من الوصف في التشبيه فقد وصف سليمان الطبيعة مشبهاً اياها بحبيبته فجاء المشبه مختصراً والمشبه به — اي الطبيعة في فلسطين ولبنان — على شيء من الاسهاب — « شعرك كقطيع ماعز رابض على جبل جلعاد. اسنانك كقطيع نعاج صادرة من الغسل ... عنقك كبرج داود المبني للاسلحة الخ ».

اننا والحال هذه لنعجب جداً بعزية الريحاني الطبيعية ـ بتغلغله في قلب الطبيعة ، بادراكه اسرارها ، بحبه الروحي لها . وان هذه العاطفة الفريدة تتخلل مقالاته وقطعه كلها حتى انك لتجدها ولو عرضاً في مقالته « من على جسر بروكلن » فالشعر والطبيعة في نظره واحد لا فاصل بينهما (راجع مقالة ابن سهل الاندلسي) والطبيعة تضع على لوحته في بعض الاحايين الواناً قاتمة فتولد تلك العواطف المرة الحادة (راجع الرداء الاسود) وقد تظهر هذه العاطفة في مظهر شديد جميل حتى في شدته وذلك عندما تلامس روحه المتألمة قلب امه الطبيعة (داويني ربة الوادي) فتتجدد قواه ويستأنف العمل . وانه في هذه الحال لمبدع في تلك القطع والقصائد النثرية التي تعصى المترجم ، فقلما يتمكن من نقل جمالها العجيب وشكلها المدهش الى لغة اجنبية .

٣

لست آخذاً على عاتقي وصف براعة الريحاني الادبية بكاملها فلا اقف لذلك حتى عند اطرافها كلها . انما قصدي ان اقدم الى محبي الآداب الاجنبية هذه الترجمة لمقالاته واشعاره فيدركون منها منزلة الريحاني بين ممثلي الاداب العربية

العصريين . علي اذن ان اقول كلمة وجيزة في هذه القطع والمقالات .

اما مؤلفات الريحاني الكبيرة فهي التي طبعت باللغة الانكليزية . وما نصيب اللغة العربية غير المقالات والخطب الكثيرة التي لا تمتاز شكلاً بعضها عن بعض . واهم هذه المقالات والخطب طُبع في مجلدين سنة ١٩١٠ كما قلت وعددها نحو خمسين وقد ترجمت منها الى اللغة الروسية وطبعت لاول مرة ما يقرب من خمسها .

وللريحاني شذرات عنوانها « بذور للزارعين » تختلف في مواضيعها وقطعها منها ما هي افكار له طيارة ، ومنها ما هو رؤوس اقلام لمقالات يكتبها في المستقبل . واني اعرف في الادب العربي الجديد مجموعة اخرى شبيهة بمجموعة الريحاني هي : « اقوال قاسم امين » وقد طبعت بعد موته . اما الفرق بين الاثنتين فهو في ان الاولى تتجلى بنوع خاص شخصية الكاتب وفي الثانية تبدو غالباً شخصية الهيئة الاجتماعية . فاذا شئت ان تعرف ابناء العرب في هذا العصر فـ « الاقوال » تفضل على « البذور » .

اما في الشعر المنثور فقد اوجد الريحاني مورداً جديداً

للادب العربي لم يكن معروفاً من قبل . والعجيب انه لم يكن معروفاً ، وهو في آدابنا الروسية عادي ، نعرفه جد المعرفة منذ الصغر . وما السبب غير القيود في الشعر العربي . فالمحافظة على الاوزان والقوافي والاشكال والبحور المقررة هي من اهم الواجبات الادبية ومن اشد التقاليد . وان ادباء العرب اجمالاً لمقتنعون كل الاقتناع انه يصعب نظم الشعر بغير الشكل الذي ينحصر في الوزن والقافية .

وقد اخذ الريحاني الشكل المنثور في الشعر عن الشاعر الاميركي ويتمان (Walt Witman) الذي يصفه باستاذ هذه الطريقة وامامها . اما نحن في روسية فاننا نعرف اكثر معرفة شاعرنا الشهير تورجينيف [1] في ما كتبه قديماً بعنوان : (Senilia) « سنيليا »

على اننا اذا انعمنا النظر في الاداب العربية القديمة نرى

---

(١) ايفان تورجينيف (Ivan Tourgueneff) ولد سنة ١٨١٨ وتوفي سنة ١٨٨٣ ومن اهم مؤلفاته التي ترجمت الى اكثر اللغات الاوروبية وحتى الى الصينية واليابانية « الحب الاول » و « مذكرات الصياد » و « الاباء والابناء » و « الاراضي البكر » وغيرها . وفي الروايتين الاخيرتين تمثل لاول مرة في الادب الروسي حياة النهليست الاولين .

انها لا تخلو من هـذا الشكل الشعري كما يتضح من مراجعة بعض السور القرآنية وان يكن شكلها غـير هذا الشكل الشعري الذي هو الان موضوع بحثنا .

قلت في ما تقدم انه يصعب ترجمة اشعار الريحاني المنثورة ، في قالبها الاصلي ، الى اية لغة اجنبية كانت . فهي تقسم الى مقاطع كبيرة او صغيرة ، لها قواف محدودة ومتنوعـة ، ومنها ما ليس فيه غير القافية الواحدة التي تظهر في بعض السطور ولا تظهر في غيرها كما انها لا تُكرر في المقاطع الاخرى . والريحاني يلتزم في بعض اشعاره لازمات تُكرر بين المقاطع مع شيء من التغيير فيها ، لذلك لم تكن ترجمتي لاشعاره غـير نقل بسيط قصدت فيه تتبع الافكار دون القوالب والاشكال .

اما لغة الريحاني فليست مما يستحسنه الناقدون العرب . والكثيرون منهم يشجبون شذوذه الظاهر بالاجمال وخضوعه لطرق التعبير الاوروبية بوجه خاص . ولا ريب ان انشاءه يبدو احياناً كأنه ترجمة حرفية عن لغة اجنبية . وهذا ما يحملنا على الظن ان الريحاني يفكر في بعض الاحايين بلغة غير لغته الوطنية الامر الذي لا يستغرب في كاتب الف مؤلفاته الاولى باللغـة الانكليزية . على اننا نرى في مقالاته الاخيرة تقدماً في اللغـة

وتحسيناً في الانشاء اذا ما قابلناها بمقالاته الاولى ، مما يدل على انه كان ولا يزال يسعى في تحسين لغته والتوصل فيها الى درجة الكمال

ومع ذلك فان المحافظين المتمسكين بالقديم من القياسات اللغوية يرون النقص في كل ما يخالف آراءهم واحكامهم ، وينعتون بالركاكة كل ما يخل بالقواعد المرعية منذ القدم وان كان ما ينتقدونه هو صحيح سليم للنمو والارتقاء . اذكر ان احد اولئك المحافظين المتعنتين قال انه وجد في رواية من روايات جرجي زيدان القصصي المشهور مئة غلطة وغلطة فلو اخذ ناقدنا هذا بعض قطع الريحاني لوجد فيها حسب قياسه الف غلطة وغلطة . ولكن هذا النقد السطحي لايضير هذين الكاتبين ولا ينفي كونهما من ابرع ممثلي الاداب العربية الجديدة

وليست اللغة العربية فقيرة او ضعيفة الى الحد الذي ترى فيه ان اعتزالها اللغات الحية خير لكرامتها ، فتتقيد بالصيغ والاساليب القديمة الى الابد . ليس في التطور ما يخيف ، وليس في التجدد ما يحط من كيانها وهي المشهود لها بالسعة والقوة والغنى

وخلاصة القول ان للغة الريحاني ما لا يجوز ان ننكره من محاسن الانشاء . ان لها منزلة سامية . ومن مزاياها الخصوصية الجمة انها لغة بسيطة مرنة شفافة تتابع جملها بخفة ورشاقة ، ولا تتراكم بعضها فوق بعض كما هو الحال غالباً عند غيره من الكتاب . فاذا قابلنا مقالات الريحاني بمقالات غيره من المعاصرين تجلت لنا تلك المحاسن خصوصاً الطلاوة منها والرشاقة وبراعة الاسلوب . زد على ذلك انها خالية من السجع الثقيل ومن الالفاظ والتعابير اللغوية القديمة التي يصعب فهمها بدون معجم ، والتي يفاخر بها المفاخرون من بعض ادباء العرب حتى في هذه الايام

وقد تهكم الريحاني مرة على هذه الطريقة العقيمة في انه قلدها ليظهر للناس سيئاتها . وذلك في خطبة القاها في جمعية بصيدا استهلها بفقرة كلها الفاظ حوشية عويصة تحقيقاً لرغبة كاتب الجمعية الذي طلب منه خطبة « لم تفتق رتق سمع ، ولم يخطب مثلها في جمع » . وكل من يقرأ الاستهلال لتلك الخطبة يدرك وهو يبتسم اسرار التفوق باللغة في نظر الاقدمين والمحافظين

انه ليصعب علينا ان نقدر اجمالاً ادب اي كان من الادباء

بناء على ترجمة مؤلفاته. واذا كان الامر كذلك فالحكم يستحيل في ادب من يمثل آداباً مجهولة لدى القراء . انما قصدي في هذه المقدمة الوجيزة تعريف الريحاني كما يتراءى لي شخصياً في تاريخ الاداب العربية الجديدة . والنتيجة التي اتصلت اليها في هذا التعريف هي انه يجدر بكل امرىء متمدن ان يعرف الريحاني الذي هو اخونا في الانسانية ، وان كان مقيماً في بلاد قصية فاذا رأى القارىء اني غير مصيب في استنتاجي ، او ان الاستنتاج لا يلتئم ومبدأه الادبي ، او ان « السمكة لا تستحق هذه الصلصة » ، او ان كلمتي هذه هي ضرب من المحاباة لمترجم اختصاصي غرضه الوحيد ان يلفت نظر القارىء الى موضوع اشغاله الخاصة ، فحسبي تعزية اني اقتديت بالريحاني في كلمته المأثورة : « قل كلمتك وامشِ » .

(لننغراد)

اغناطيوس كراتشوفسكي

مؤلفات الريحاني العربية

كما اصبحت في اوائل سنة ١٩٥٠

•

ما اعيد طبعه بعد وفاته

اللزوميات : بالانكليزية الطبعة الرابعة

النكبات : الطبعة الثانية

خارج الحريم : الطبعة الرابعة

التطرف والاصلاح : الطبعة الثالثة

•

ما نقد وسيعاد طبعه

الريحانيات : ١ — ٢ — ٣ — ٤

قلب العراق

ملوك العرب : جزءان

فيصل الاول

تاريخ نجد الحديث

زنبقة الغور

انتم الشعراء

وفاء الزمان

موجز تاريخ الثورة الفرنسية

المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية

•

ما طبع من مخطوطاته سنة ١٩٤٧

قلب لبنان : الطبعت الاولى

•

المخطوطات التي برسم الطبع

المغرب الاقصى : جزءان

سجل التوبة

رسائل امين الريحاني

الريحانيات : ٥ — ٦ — ٧ — ٨

فهرست

مقدمة	٥
الى القارىء	١٠
السلم	١٣
التطرف	١٨
اصلاح الامة	٢٥
الى طلبة المدارس	٥٥
مبدئي	٦٢
امين الريحاني	٦٤
مقدمة كتاب الريحانيات المترجم الى الروسية	٦٥
مؤلفات الريحاني كما اصبحت في سنة ١٩٥٠	٩٠

T

Back

*PB-37348
5-20T
C-C

B

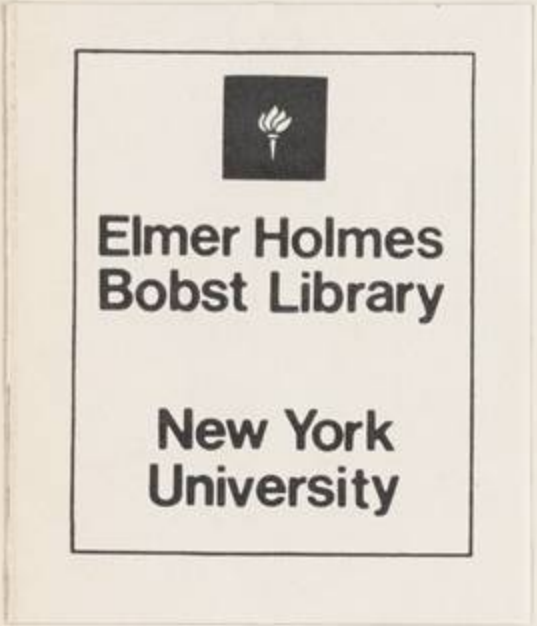
Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 01255 1654
PJ7860.I45 T3 1950
al-Ta'¿aru

PJ
7860
.I45
.T3
1950
c.1